ذخائر العرب
٢٦

شرح
ديوان صريع الغواني

مسلم بن الوليد الأنصاري
المتوفى سنة ٢٠٨ هـ

عنى بتحقيقه والتعليق عليه
الدكتور سامي الدهان
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الطبعة الثالثة

دار المعارف

ذخائر العرب

٢٦

شرح

ديوان صريع الغواني

مسلم بن الوليد الأنصاري

المتوفى سنة ٢٠٨ هـ

عني بتحقيقه والتعليق عليه

الدكتور سامي الدهان

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شرح
ديوان صريع الغواني

مقدمة المحقق

تمهيدا - حياة مسلم بن الوليد - شعر صريع -
ديوانــــه - مخطوطته - هــذه الطبعــة .

« وأما صريع فكلامه مرصع ، ونظامه »
« مصنع ، وغزله عذب مستعذب ، وجملة »
« شعره صحيحة الأصول قليلة الفضول »
ابن شرف القيروانى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بسطت اللغة العربية ظلها فى رقاع الأرض الواسعة من تخوم الهند إلى أقصى المغرب العربى خلال قرون عديدة ، فظهرت على لغات هذه الأمم وظفرت بقلوب الكتاب والأدباء والعلماء والمفكرين . فأرسلوا فيها كتبهم ومصنفاتهم ضخمة وافرة لا يقف لها مفهرس ولا يحصيها كتاب .

ونزلت بساحتها النكبات والحروب فأتلفت كثيراً من آثارها المخطوطة . وبقى كثير كان إلى زمن قريب يسكن الجوامع والمساجد والبيوت ، وتعاونت الرياح والرطوبة والغبار والشمس والأرضة على النيل منها ، وأعانها من أعان من جهلاء هذه الأمة الكبيرة وتجارها على حملها إلى بقاع الغرب وعواصمه .

وفى الغرب شَمَّر رجال الدين والمستشرقون منذ أربعة قرون لفهرسة هذه الكنوز وتبويبها ، وترجمة بعضها ونشر بعضها الآخر ، وفاق أساليب علمية ورسوم مقررة ، فصدرت فى هذه العواصم على أيديهم ننظر إليها فى إعجاب وإكبار مهما اختلفت الأسباب والدوافع إلى نشرها من غزو أو استعمار أو تبشير أوعلم خالص . وأصبحت اليوم قديمة نادرة لا تبلغ إليها يد العربى فى يسر ، ولا ترقى إليها همته فى الشراء ، وهى على ذلك فى مقدمات وفهارس وتعليقات فى لغات لا يتقن أكثرُ القراء العرب فهمَها وتتبع ملاحظاتها وفوائدها .

وفى طليعة هذه الآثار الخطية ديوان مسلم بن الوليد ، فقد نهض له مستشرق هولندى ، فعُنى به منذ نيف وثمانين عاماً ، وظلَّ عمله وحده قبلة الدارسين لهذا الشاعر الفحل ، فآثرتُ أن أوفر نسخه وأن أعيد النظر فيه ، وأن أصنع له فى

العربية ما صنع المستشرق فى اللاّتينية ، لعله يحتل مكانه من جديد فى دراساتنا بين معاصريه أبى نواس وبشار وأبى العتاهية ، فهم طلائع البيان والفصاحة واللّغة ، وهم ينابيع ثروتنا اللغوية والأدبية والاجتماعية فى عصر ذهبى لا يقلّ عن أزهى العصور الأدبية فى أية مملكة وأية لغة .

وأملى أن أسدَّ به ثغرة كانت واضحة ، وأن أدفع زكاة العلم والأدب فى العمل له ، وأن أشارك هؤلاء المخلصين الذين يعملون فى الشرق منذ زمن فى نشر المخطوطات وإعادة المطبوع منها ، لعلنا نوفّر لأبنائنا تراث الأجداد ، ونعرّفهم بماضينا الضخم ؛ ليعملوا على بناء مستقبل أضخم ، وليصنعوا أمجادنا من جديد ، ويوازنوا بعد ذلك بين حضارتنا الموروثة والحضارة الجديدة الوليدة التى تلفّهم من كل جانب وتغريهم بكل سبيل .

وفى الصفحات التالية سبيلى إلى التعريف بالشاعر وديوانه ، ووصف مخطوطته . وشرح راويه ، ورسم الطريقة التى اتبعتُ فى تحقيقه ، وهى مقدمة تتلوها دراسات عميقة مفصلة مستوعبة ، إن شاء الله تعالى .

س . د

الفصل الأول

حياة مسلم بن الوليد

؟ – ٢٠٨ هـ

موطن الشاعر – أسرته – طفولته – شبابه – لقبه – مجده – موته

موطن الشاعر :

كانت الكوفة فى القرن الثانى للهجرة تعج بالأئمة والعلماء ، تعقد فيها مجالس العلم والأدب والفقه ، فتقف للبصرة وعلمائها وأدبائها ، حتى كادت العصبية القبلية تتحول إلى عصبية علمية ، وقامت كل من المدينتين مقام القبيلة ، وشاعت النسبة إلى النظرية الأدبية والفكرة العلمية ، واحتلت مكانها من عقول العلماء ومن إليهم من الطلاب والرواد .

وقد كانت الكوفة منذ نشأتها فى شغل شاغل بالأدب والفقه ، وصفها الإمام علىٌّ – كرم الله وجهه – فقال : « الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام » ؛ ووصف مجالسها بأنها لضرب الأمثال وتناشد الأشعار ، فكأنها من الأمة الإسلامية كما كانت أثينا للأمة اليونانية موضع الفكر وموطن الذكر ، ومحطّ الرحال للأدباء والعلماء والفنانين . فلما دخلها الطارئون من الموالى والفرس واستطابوا العيش فيها قامت فى البلدة فئة أخرى إلى جانب الدين والنحو واللغة تسعى إلى الفن والأدب الخالص ، واللهو ، ولكنها كانت تعقد أكثر مجالسها فى البيوت والمقاصف والحانات بعيدة عن مساجد الكوفة ، تشرك المرأة فى سمرها وأحاديثها ، فأخذت بالشرب ، واستمعت إلى القيان وطربت للعزف ومالت إلى الطرب . وتجاور فى أثينا الإسلامية حينذاك متزمتون ومتحررون ، وإنْ شئت فقل محافظون ومجدِّدون ،

رفع
المسيهم

ونشأت هوة سحيقة بين هولاء وهؤلاء ، وتلفّت أكثر الشباب إلى الفئة المتحررة سعياً وراء الحرية الفكرية ومغريات الحياة .

وساعد على ذلك كله تمركز الحكم فى بغداد ، ووقوف المعارك الحربية والفتوح الإسلامية الواسعة فقد استقرّ الحكم فى ظاهر الأمر أو كاد ، وانصرف الخليفة نفسه أو حاشيته إلى شيء من الغذاء الفكرى يطربون لهذا اللون الجديد من الأدب والتفكير ، فعاشت بغداد فى بحبوحة من العيش أو على الأقل عاشت طبقة الأغنياء والحكام فى يسر من الحياة ، وعاش كثير من الفنانين على موائدهم ينعمون بفتات اللذائذ مما يجود عليهم رب المائدة فى قينة تمنح أو جارية توهب أو مكافأة تعطى . وقد جاءنا صدى ذلك فيما خلفت كتبُ الأدب والنوادر ودواوين الشعر ، فصورت جانباً كبيراً من هذه الحياة العباسية للقرن الثانى ، استعر فيها لهيب الفن والأدب وعمرت فيها بيوت اللهو والطرب ، وتجاورت فى دنيا المسلمين – من عرب وموال – فئتان متناقضتان ، هى فئة المشفقين على الدين والأخلاق والفضائل العربية وهم المتحرجون ، وفئة المتخففين الهازلين الذين وفدوا على اللذة من أبوابها يهجمون على الدين والعروبة ينتقم بعضهم لعصبية تنهار وأمة تزول ومجد يتحطّم ، ويرى بعضهم الآخر فى اللون الجديد من الحياة لذائذ تغرى بالعيش .

* * *

أسرة الشاعر :

وكان فى ساكنى الكوفة جماعة من الأوس والخزرج خرجوا مع الفاتحين ، وجاءوا يشتركون فى هذه الحياة العامة ، يعتزون بحيّهم من العرب ونصرتهم للنبى الكريم ، وموقعهم من الإسلام فى مدينة يثرب . وكان أن اصطنع هؤلاء مواليهم من الفرس كما اصطنع غيرهم من العرب ، فألحقوهم بنسبهم وجعلوهم فى جملتهم ،

رفع
المسهم

يعتزون بالولاء ويعدون كالأبناء ، ويفخرون على قريش كما كان الأنصار يفخرون سواء بسواء . وأكثر هؤلاء الموالى عاشوا على شكل عجيب ، ليسوا فى العرب الأقحاح وليسوا فى الأعاجم المشركين ، فهم لا يؤدون الجزية ولا يدوّنون فى المقاتلة ، ولكنهم فى هواهم مع الفرس كلّما انفتحت نافذة الشوق وذرَّ قرن الهوى .

وفى الأنصار أو فى مواليهم نشأ رجل يسمى الوليد تصطرع المصادر الأدبية حول نسبته الصريحة أو ولائه الصحيح(١) ، فهم يحومون حول رجل مغمور ليس له فى حلبة العلم أو السياسة أو الشعر شأن أو شهرة ، ولكنه أصبح فيما بعد أباً لرجل اشتهر فلم يُبدوا أو يعيدوا فى حياته أو أثره ، وإنما اختلفوا فى عروبته أو فارسيته – وهم يترجمون لابنه – . وقد رأى بعضهم أنه كان حائكاً يحترف الصناعة كما كان يحترفها أكثر الموالى الفقراء لأن غالبية العرب انصرفوا عنها وازدروها ونظروا إليها نظرة الاحتقار ، فهم يرون للعربى أن يخرج وأن يقاتل وأن يأسر ويُؤسر ، ويقتُل ويموت ويرون للفارسى المولى أن يكون أسير الحرفة قعيد المهنة .

وقد تأثر الوليد الأنصارى بما كان لعصره فى الكوفة فاشترك فى النظرة إلى هذه الثقافة المنتشرة ، وأرسل أولاده إلى المساجد فى الكوفة يستمعون إلى ما كان يدور فيها من جدل حول الفقه والدين ، وما كان يثور حول أعمدتها من شعر تفوح منه رائحة الهوى ، فى الفينة بعد الفينة . وكان أولاده يعودون وفى أذهانهم هذه الصور الأدبية ، وعلى لسانهم هذه الأبيات ، فيتناشدون فى الحىّ مع لداتهم ومجاوريهم ما كانوا يحفظون وينقلون ، حتى إذا بلغوا سنَّ القول راحوا يهلون بنظيم ضاع كثير منه ، وحفظت كتب الأدب بعضه ، تشم فيه رائحة العربية الجزلة ، فقد كانت الكوفة كذلك محط الأعراب من البادية وموطن الرواة ، وموضع الخلص من العرب .

---

(١) يقول صاحب الأغانى وهو أكثر الناس والأدباء الذين توسعوا فى أخبار الشاعر مسلم بن الوليد أن أبا الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبى أمامة أسعد بن زرارة الخزرجى ، ويقول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٨٠٨ : « مسلم بن الوليد من أبناء الأنصار » ويروى صاحب الجمهرة أن الشاعر من الأنصار أخوال قريش .

رفع

وقد حفظت لنا كتب التراجم اسم اثنين من أبناء الوليد الأنصارى أحدهما سليمان والآخر مسلم ، بلغا مرتبة فى الشعر واشتهرا به .

* * *

الأخ الأكبر :

أما سليمان فقد ذكره الجاحظ[1] وكان من معاصريه ، فقال إنه أعمى ، وإنه كان من مستجيبى بشار الأعمى ، وإنه كان يختلف إليه وهو غلام ، فعرف بقلّة الدين أول الأمر ، ولعله أكبر من أخيه مسلم فقد توفى قبله ، وعرف بشارًا المتوفّى سنة ١٦٧ للهجرة ، فأدركه سليمان وهو صغير . ولم يروَ عن سليمان إلاّ القليل من الشعر ، وربما كان ذلك لعكوفه على الزندقة واللهو . وشعره فيه طمسَته الأيام ، أو لأن شعر بشار طغى عليه فأخفاه ، ومهما يكن من أمر سليمان الأعمى هذا ، فقد طواه الزمان ولم يحفظ لنا من سيرته وتربيته وأدبه ما يزيدنا ثروة فى معرفة هذه الأسرة التى اعترف مسلم ، فيما بعد ، أن ربما كان شيخاً تقيًّا يدعو لمسلم فى الأسحار أن ينصره الله على خصومه . ولكننا عرفنا أن الأسرة فتحت بيتها للشعر والفن واللّهو على يد هذا الأخ الأكبر ، وأنه انقطع إلى يزيد بن مَزْيَد ، واتصل بالبرامكة ورثاهم بعد نكبتهم[2] ، كما فعل مسلم بعد ذلك حين سار على صداقته بالبرامكة وانقطاعه إليهم برهة من الزمان .

والمهم أننا لا نتقصى أخبار سليمان وأشعاره ، وإنما نتحدث عنه فى سبيل الحديث عن أخيه ، فله أنشأنا هذه الصفحات نرسم فيها خطوط حياته وما كان من ألوان شعره ، عن كتب الأدب والديوان ، وخاصة عن كتاب الأغانى فهو ينقل غالباً عن مصادر قيّمة ، ويعتمد فى أكثر أخباره على أبى العباس محمد بن يزيد المبرد ، وهو من نعرف ثقة وعلماً .

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ، طبعة الأستاذ عبد السلام محمد هارون ٤ / ١٩٥ .

(٢) معجم الأدباء ، ط . الرفاعى ١١ / ٢٥٥ .

رفع
المسهم

طفولة مسلم :

أغفلت التراجم سنة الولادة فى حياة مسلم بن الوليد الأنصارى ، كما فعلت حين ترجمت لكثير من الشعراء . ولعلها قد أخذت بذكر الوفيات فحسب . ولكننا نعنى منذ حين بأمر الولادة نريد أن نعرف السن التى قطعها الشاعر فى التعلم ، ونود أن نحدد سنة النبوغ المبكر ، ونحب أن نعرف الذين عاصرهم ، ومن أخذ عنهم وتأثر بهم فظهر ذلك فى شعره وفى حياته .

وسبيلنا إلى معرفة هذه الولادة وتحديد سنتها ليس باليسير ولا بالعسير ، لأنه تكهن وافتراض ، لا يقف للعلم وإنما يجرى مع الحدس والتخمين ، يجمع شتيت المعلومات التى بلغت إلينا وينقدها ليستخلص منها مادة للحكم . وهذه المعلومات نفسها هى فى أكثرها من النوادر وهى موضع الشك العلمى ، لأنها لم تصدر عن باحثين أو مدققين يهتمون لهذا الأمر ، وإنما ألقيت فى الغالب إلقاء لا تعتمد على روية وإنعام نظر .

نُقل إلينا أن مسلماً قال شعرًا فى الخليفة المنصور . وهذا الخليفة تُوفى سنة ١٥٨ للهجرة ، فلا شك فى أن الشاعر قالها وهو ابن عشرين أو أقل ، ونُقل إلينا أنّ الرشيد وهو صغير كان يحفظ شعر مسلم بن الوليد ، والرشيد ولد سنة ١٤٨ هـ ، فلا شك فى أن مسلماً ولد قبل عشر سنين من ولادة الرشيد على الأقل(١) . فقد قيل إن بشارًا قال الشعر وهو ابن عشر سنين فهل يتشبه شاعرنا به ؟ على أننا لن ننسى أن نشير هنا إلى أن الرشيد والمأمون سمعا أشعار غيره من الشعراء ، وأنهما فى جملة الخلفاء الذين استحسنوا الشعر أو نقدوه ، فقد أراد لهم أصحاب الأخبار أن يشتركوا فى هذه المعركة الأدبية التى دارت خلال هذا العصر العباسى ، فنصروا شاعرًا وخذلوا آخر ، ولكننا لا نعتمد على ما رواه أصحاب هذه الكتب فى شكل

(١) اقرأ الدراسة التى أنشأها الأستاذ حسن علوان فى كتابه " صريع الغوانى " ، مصر ١٩٤٩ لهذا الفصل خاصة .

رفع المسبهم

علمي ثابت : محقق ، وإنما نقف منه فى شك .

على هذا اعتمد الباحثون المعاصرون ، فرأى المستشرقُ ده خويه أنه ولد بين سنة ١٣٠ – ١٤٠هـ ، وتبعه فى ذلك المستشرقون ، ورأى الباحثون من العرب أنه وُلد بين سنة ١٤٠ – ١٥٠ هـ ، ونحن لا نقطع فى هذا ، وإنما نفترض أنه ولد حوالى سنة ١٤٠ هـ .

وإذاً فنحن مضطرون إلى أن نقبل بأن مسلم بن الوليد ولد فى مدينة الكوفة حوالى منتصف القرن الثانى للهجرة ، ونشأ فيها وترعرع ، يستمع إلى الشعر ويرويه ثم ينشده ويتعلق به ، فهو يسمعه فى السوق والمسجد ، وفى البيت على لسان أخيه سليمان الأعمى .

وكان فى الظن أن يسير مسلم فى طفولته سيرة كثير من الأطفال الذين تعلقوا بشذوذ المجتمع الجديد وجمعوا المجون من جوانبه ، فقد كان الشعر النواسى والطراز الفارسى يطوفان أكثر الأرجاء ويملآن أغلب الأسماع ، ولكن أذن الفتى «مسلم» انصرفت عن هذا اللون من غير شك ، وتعلقت بشعر الفحول القدماء كالنابغة وزهير والأعشى وعمر بن أبى ربيعة وامرئ القيس والأخطل وجرير ، وغيرهم ، فسمع شعر بشار يرويه أخوه سليمان الأعمى من غير أن يأخذ بالزندقة والتحلل من الدين ، فنحن لم نقع على خبر يتهمه بذلك ، ولم يسقط إلينا شعر لمسلم فى هذا الباب .

وهكذا ترعرع الشاب فى وقار وهدوء ، فعرف بالأناة والصبر والخجل والبعد عن المجتمعات ، فيما قالوا ، حتى لقد انزوى عن الماجنين ، فلم يُنقل إلينا فى كتب النوادر شيء من القصص فى خلاعته ومجونه فى طفولته ، أو تردّده على الدور المشبوهة ، ولم يُنسب إلى جماعة أبى نواس أو بشار ، بل نُقل إلينا أنه حين حل ببغداد سعى كثيراً إلى الاجتماع بأبى نواس ، وسأل صديقه وتلميذ دعبل أن يقوم بذلك ، فكان له ما اشتهاه وتمناه ، ولما وقع ذلك كان التلاحى والتنافر . وسبب ذلك فيما نرى، تأثر مسلم بأخلاق البدو وعاداتهم ، وقرب حيه فى الكوفة

رفع المسبهم

من حافة البادية وإقامته على ذلك زمن طفولته وبعض أيام شبابه ، وسنرى أثر ذلك فى حياته وفى شعره .

* * *

شبابه :

انصرف الفتى فيما نظن إلى سماع الشعر فى مدينة الكوفة ، بل لعله اتخذ مكانه غالباً فى المسجد الكبير يصغى إلى أحاديث النحو والصرف واللغة والبيان ، على أئمة العصر ، فأفاد منهم معرفة واسعة ظهرت آثارها فى شعره وبيانه ، فكان فصيحاً بليغاً متعلقاً بعمود الشعر ، ينحو نحو الفحول . فلما راح ينشد الشعر اشتهر أمره وطار ذكره ، وراح يطمح إلى أن يكون فى حاضرة الملك وعاصمة الخلافة ، لعله يتصل بالأمراء والوزراء ومن إليهم ، فيقول فيهم وينال من عطاياهم .

ولسنا ندرى كيف كان أول اتصاله بهؤلاء الأمراء والوزراء ، كما نجهل السنة التى تَوَجَّهَ فيها إلى بغداد ، فقد كان عليه أن يسلك سبيل غيره من شعراء زمانه ، بل عليه أن يسلك سبيل الشعراء فى الدنيا حين يفدون إلى العاصمة يجدون فيها الجاه والمال ، ويخلصون من بلدهم الصغير إلى بلد تلتقى فيه العبقريات والأذواق والطبقات المختلفة .

ونقدّر أنه توجه إلى بغداد وهو فى مطلع الشباب فاتصل بالبرامكة وقد اتصل أخوه قبله بهم ، وربما عَرَّفه إليهم . والشيزرى فى كتابه «جمهرة الإسلام» ينقل عن أبى العباس المبرّد فيقول : «وكانت البرامكة ويزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد يبرّونه ويتعطّفون عليه ويتفقدون أحواله» . وهذه الصيغة فى التعطف والتفقد تسوقنا إلى الظن بأن الشاعر كان فى بدء حياته الشعرية ؛ وأنه كان طائراً صغيراً قليل الزغب لم يكتس بالريش الكثير فلم يكن يحلّق كثيراً ، ولم يكن يغرد طويلا . ويضيف الشيزرى قوله : «وكان إذا كسب مالاً جمع من أصحابه فلم يخرج من بيته أكلاً وشرباً ولعباً ولهواً حتى يبقى مما كسب قوت

شهر فيظهر ». وهذا المال فيما يبدو كسبه من البرامكة وغيرهم فنال من رفدهم وعطاياهم.

وهكذا انتقل الشاب من حياته الوادعة الضيقة الهادئة فى الكوفة ، وابتعد عن أعين المراقبين والحساد إلى بلدة كبيرة وحاضرة واسعة ، فاستسلم فى أول الأمر إلى الطرب واللّهو والشرب واللّعب ، فأنفق حتى عُرف بالكرم والسخاء ، بل الإسراف والإتلاف ، فكان كغيره من هؤلاء الشباب يلهو ويلهو حتى يفتقر فيجرى وراء قيثارة الشعر يغنّى بها ليرتزق من جديد ويعود من جديد إلى عبثه.

ولكنّ هذا المال كان دون ما يكفى هذا العيش – فيما يبدو – وهذه الشهرة كانت دون ما يطمح إليه الشاعر ، وقد تقدم فى الشباب وسعى إلى الزواج . وكان يرى غيره يتقرب من الخليفة وينال من جوائزه الكثيرة ولذلك تمنى قرب الخليفة ، وأصبح فى آماله أن يحظى بهذا اللقاء ، وأن يمثل بين يديه ، وقد نقل إلينا المبرد ذلك فقال : « إن مسلماً كان يمدح من دون الخليفة ولا يطمع فيه ، فكان يقول أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء من لا يوازينى فىّ أدب ولا يماثلنى فى نسب ، ولا يصلح أن يكون شعره خادماً لشعرى »[1] .

وهنا نلاحظ اعتداد الشاعر بنفسه وعرفانه لقيمة شعره ، وطموحه البيّن ، فهو فيما يعتقد يطير بجناحين من نسب وأدب ، فنسبته إلى الأنصار كانت فوق كل نسب ، وشعره فى أدباء الأقطار الوافدين كان فوق كل شعر ، بل إنه فى شاعريته فوق شعراء الخلفاء . لذلك اشتد ساعده و قوى أمله وراح يطالب بحقه كما طالب غيره من شعرائنا العرب على مرّ العصور ، يتزاحمون على المورد بالمناكب ، ويرون لأنفسهم حق التقديم ، وهم حين يقولون ينقل الناس عنهم ويأخذ الشعراء منهم فالجوائز فى الواقع من حقها أن تكون لهم ، وهم الصَّوتُ الجهير وغيرهم الصدى .

وقد نُقل إلينا أن منصور بن يزيد الحميرى رأى مسلماً فتحفّى به منصور

---

(١) جمهرة الإسلام الشيزرى ، مخطوطة ، نشرناها آخر الديوان .

رفع المبسّهم

وأكرمه ودعاه إلى أن يقوم بشأنه عند الرشيد ، فسأله عن أحواله ، فأخبره بما يصنع لكونه كاليائس من قرب الخليفة أو أن يعدّ فى مادحيه[1] ، فوعده منصور وقال : « إنى أقرر عند الخليفة من وصفك وقريب نسبك ، وما يجب لسبقك وتقدمك فى الصناعة ما يكون كافياً عن شعرك ومغنياً عن ذكر فضائلك » . ويسير المبرد فى قصته فيروى أن منصوراً الحميرى هذا دخل على الرشيد ، والرشيد مهموم ، فقال له : « خلّفتُ بالباب آنفاً رجلاً من أخوالك الأنصار متقدماً فى شعره وأدبه وظرفه وإنْ كان قد أخر عنك . وظل منصور يغرى الخليفة ويرغبه ويستدعيه إلى صلة رحمه والتجمل بخدمته حتى دخل به ، وكان حلواً فوصل به فى وقت كان خرج من الشباب ونزقه ، ولم يكن فى عداد من اضطرب حياء ، وله فهم وتجربة وتمييز ومعرفة » .

وهكذا شاءت القصة أن تَروى فى ظرف ولباقة قصة اتصال مسلم بالرشيد . والوساطة التى بُذلت فى سبيل ذلك شبيهة بكل وساطة مثيلتها فى العصور الأدبية . وقد فهمنا أن الشاعر خرج من نزق الشباب ، وكان حلواً ، متمكناً من الفهم والتجربة والتمييز والمعرفة ، وهى صفات شَهد بها رواة الأخبار لمسلم بن الوليد ، فشبّهوه بزهير بن أبى سلمى من أجلها ، وكثيراً ما رووا أنه كان شديد الأناة كثير الصبر ، حتى إنه تأثر شعره بهذه الطباع الفذة .

وتنتهى هذه القصة بأن مسلم بن الوليد انبرى ينشد الرشيد فيستحسن منه ما حكاه من وصف شراب ولهو ودماثة وغزل ، ثم أمر له بمال وأمر أن يتخذ له مجلس خلوة ، فتحوّل إليه ، وجعل الخليفة وأصحابه يتناشدون قصيدة مسلم ، وفيها بيته المشهور :

وما العيش إلّا أن تروح مع الصبا صريع حميا الكأس والأعين النُّجل

وقيل إن الخليفة لقبه يومئذ بصريع الغوانى لهذا البيت .

---

(١) النص نفسه وبالمكان عينه .

لقبه

وسواء أصحّت هذه الحكاية أم كانت من صنع الرواة فهى هامة فى بيان كثير من صفات الشاعر وحياته وخُلقه وحاله آنذاك ، وبيان حال الرشيد ومجالسه والدخول عليه وانبساطه للشعر بعد الهمّ ، وتقديره للشعراء والأدباء والعلماء فإنها بغداد حاضرة العالم الإسلامى تضج بالأمراء والوزراء يُقربون البعيد ، ويبعدون القريب ؛ أقبل إليها الشاعر يُدلى بدلوه ويرسل بشعره لينال ويحظى ويشتهر ، فيسير ذكره بعد أن كان مغموراً ، ويُثرى بعد أن كان فقيراً . بل لعل الأديب الكبير ساق هذه الحكاية على طولها لينتهى إلى أمر واحد وهو بيان سبب تسمية الشاعر مسلم ابن الوليد وتلقيبه بصريع الغوانى . وليس هذا غريباً فقد تكلف كثير من النقاد والأدباء مثل هذا فى بيان الألقاب وتعليلها وشرح الأسماء وأسبابها فى الأدب والتاريخ والجغرافية ، فداروا حول هذه الكلمات وقلّبوا ألوان الاشتقاق وصنوف المعانى وأوردوا مختلف القصص والحكايات ؛ ولكنهم كثيرًا ما باءوا بالفشل وظلت الألقاب والأسماء من غير تعليل حتى يومنا هذا ، إلّا ما كان من عادة البشر فى إطلاق الألقاب على سبيل الحب أو الكره ، والسخرية أو الجد ، والنكاية والتشفى ، أولعلّة ومرض[1] .

ولن نضرب الأمثلة الكثيرة لهذا ، فأمامنا شعراء أطلقت عليهم[2] ألقاب معروفة مثل عائد الكلب والممزّق ومسكين الدارى وأبى العيال وغيرهم .

وعندنا القطامى عمير بن شييم بن عمرو التغلبى أطلق عليه كذلك لقب « صريع الغوانى » . وقد قال البيتى العلوى فى كتابه « مواسم الأدب » بهذا الصدد : « ومن الشعراء طائفة نطقوا فى الشعر بألفاظ صارتْ لهم شهرة يلبسونها وألقاباً يُدعون

---

(١) انظر ديوان الوأواء الدمشقى ، تحقيق سامى الدهان ، المقدمة ، دمشق ١٩٥٠ .

(٢) انظر الأغانى ٢٠/١١٩ ، وخزانة الأدب ٢/١٥٢ .

بها فلا ينكرونها »[١] . ونحن لا نؤمن بذلك ولا ننكره إنكارًا علميًّا ، بل لا نعير اللقب كبير أمر إلَّا حين يدل على صفة حقيقية من صفات صاحبه وقد نُقل إلينا فى كتب الأدب[٢] أن رجلا سأل مسلم بن الوليد لم تدعى صريع الغوانى ؟ فأنشأ يقول :

إن ورد الخدود والأعين النجـ ـلَ وما فى الثغور من أقحوان
واسودادَ الصدغين فى أوضح الخـ ـدّ وما فى الصدور من رمان
تركتنى لدى الغوانى صريعاً فلهذا أدعى «صريع الغوانى»

فإذا صَحَّت نسبة الأبيات إلى مسلم بن الوليد فليس بعد شعره قول لقائل لأنه هو نفسه يعترف بالتسمية ، ويصرّح بأنه صريع حقًّا . والحكايات التى نقلت إلينا عن بعض عيشه فى بغداد تدلنا على شىء من صدق هذه التسمية فقد كان كلفًا بالهوى يتبعه فى كل مكان ، وكان زير نساء فيما بلغنا من هذه الروايات التى يغص بها كتاب الأغانى . فقد ذكر أبوالفرج عن المبرد أنه عشق جارية فأرسل أخرى لتعود إليه بأخبارها ورسائلها ، فعشقتها جاريته الخاصة فمنعها من التراسل . وذكر دعبل بن على الخزاعى أن الجوارى كانت تأتيه إلى بيته فيرسل غلامه فى بيع أشيائه لينفق على ذلك حتى باع منديله حين أعسر ذات مرة . وذكر غيره أنه اجتمع بأبى الشيص وأبى نواس ، وأنهم تناشدوا الشعر وسجدا له بعد أن شربوا وطربوا . وديوان مسلم نفسه يكرر مرات كلمة الصريع والمتفانى فى الحب والخليع فى الهوى ، ويمتلئ بأوصاف الغوانى ما حسن وما لذّ ، مما يدل على أن صاحب الشعر كان متيماً يغريه الجمال بالفتنة والهوى . وكان يهيم بالخمرة والمرأة ، ويشرب ويشرب حتى يسأل جاره قارورة نبيذ فيما يروى صاحبُ الأغانى .

---

(١) انظر مواسم الأدب ١/١٣ .
(٢) لطائف المعارف للثعالبى ، ٢٣ .

ولكنّ هذه الأخبار كلها وأشعار الديوان فى جملتها لم تحو حكاية واحدة تدل على شذوذ مسلم بن الوليد وعكوفه على الغلمان أو وصفه لمفاتن الولدان ، على معاصرته للشعراء والمجّان الذين ملأوا دنيا الأدب عربدة ومجوناً وخلاعة شاذّة . وكان مسلم على العكس يُخفى أسماء اللواتى تغزّل بهن ويُعيرهن أسماء يخترعها خوفاً من الفضيحة أو إبعاداً فى الاعتداد بعشق النساء لجماله . ونحن رأينا أن الروايات وصفته بأنه جميل حلو ، ووصف نفسه فى الديوان كذلك ، ولكنه كان بديناً فيما رأينا كبشار ، مع العلم بأن الجمال شىء والخلاعة شىء آخر لا تتلازمان ولا تستوجب إحداهما الأخرى ، كما نقول اليوم .

* * *

رب الأسرة .

ولسنا ندرى من خبر النسوة معه ما يمكّننا من معرفة الحليلة والخليلة ، فنحن لا نعرف متى تزوج لأن الأخبار سكتتْ عن عيشه مع زوجه ، ولكنها شهدت بحسن أخلاقه وطيب وداده وعظيم إخلاصه ، على ما كان منه مع الغوانى وما نقلنا من أخباره معهن . فلعلّ زوجه وحدها تعرف أن هذه الأسماء الواردة فى شعره أسماء رمزية لا تعنى إلّا أشباحاً قامت فى خيال الرجل ، أو أنها كانت توهم نفسها بذلك ، فكانت تجهل حياة زوجها خارج البيت ، لأن الحرائر كن بعيدات عن هذا الجوّ من الاختلاط بين الرجال والقيان والمغنيات ، وهو على ذلك شاعر يجوز له فى أوساط الفنانين ما لا يجوز لغيره فيما كانت ترى . والشعر الذى بلغ إلينا يدلّ على معرفة مسلم بما وصف وقيامه غالباً بما حكى ، وفهمه فهماً عميقاً لما رسم . . .

لذلك نظنّ أن زوجه ، انصرفت عن هذا كله إلى التفكير بأطفالها وتدبير بيتها ، فقد علمنا أنه كان له ثلاثة غلمان وابنة : (عبد الله ، ومحمد ، وخارجة [١])

(١) فى الأوراق للصولى ١/٢٥٣ أن خارجة بن مسلم بن الوليد رثى أباه ومدح أحمد بن نصر الكاتب .

ونجهل اسم ابنته ، ولكننا نعرف أنها تزوجت ، وذكر كتاب «الموشّح» على لسان ابنها ما يلي : «حدثني ميمون بن هارون عن الحسين ابن بنت مسلم الأنصاري قال : حدثني أبي قال : كنا عند مسلم في المسجد ، وهو يملي عليّ وعلى عدّة معي هذه القصيدة الدالية . . . إلخ[1]» .

ويُعلمنا الأصبهاني[2] أن شاعرنا رثى زوجته في حياته رثاء خالصاً فدل على وفاء وصدق وزوجية صالحة ، حتى قيل إنه جزع عليها وتنسك مدة طويلة ، ولم يجئنا أنه تزوج بعدها لأنه قد أصبح في سن زهد فيها بالغواني وذكرهن حتى كره أن يلقب أواخر حياته بصريع الغواني – فيما زعموا – فقد نقل صاحب «معاهد التنصيص» عن الحسين بن دعبل الشاعر أنه سأل مسلماً معنى قوله : «لا تَدْعُ بي الشوق إلى غير . . . فأجابه : لا تَدْعُني صريع الغواني فإني لست كذلك[3]» .

وهذا الخبر يُشبه ما نُقل إلينا عنه أنه تزهّد في أواخر أيامه ، وأنه تاب حين حل بجرجان ، فأتاه راويته فتغافله مسلم ثم أخذ منه الدفتر الذي في يده وقذف به في البحر . ولعل الرواة آنذاك نظروا في شعره بعد وصوله إلى جرجان فرأوه قلّة لا تنقع الغليل ، فآثروا أن يذيعوا الخبر على أنه تاب وسكت لسانه – كما نرى بعد قليل .

* * *

المجد والمال :

دخل مسلم بن الوليد قصور الأمراء واتصل ببلاط الخلفاء ، ونال من الجوائز والأعطيات ما يصعب حصره وإحصاؤه ، ومدح السّادة والحكام والأبطال والأعلام

---

(١) انظر الموشح للمرزباني ٢٨٩ .

(٢) الأغاني ، بالورقة ٥٥ ظ .

(٣) معاهد التنصيص ، طبعة مصر ١٢٧٤ ھ ، ص ٣٦٤ – وفي الأغاني كذلك بالمخطوطة ، الورقة ٤٧ ظ .

لعصره ، فكثرت فى ديوانه أسماء الممدوحين ، وشاعت فى الأخبار عنه أسماء كثير ممن اتصل بهم ، ومنهم مَن لا يسجل له التاريخ الرسمى – إذا صح التعبير – كبير خطر ، فلعله نظر إليهم من طرف واحد هو اتصاله بهم وجميلهم الذى منحوه .

نُقل إلينا أنه اتصل بالبرامكة – كما اتصل أخوه من قبل – واختص بالفضل ابن يحيى البرمكى(١) وكان هذا عاملاً للرشيد قلده الشرق كله إلى أقصى بلاد الترك ، فأغدق على الشاعر وأنعم عليه . وعاش مسلم موفور النعمة كذلك لعطايا يزيد بن مَزْيَد الشيبانى(٢) ، وكان هذا من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين تولّى بأرمينية وغيرها . ومدح الفضل بن سهل السرخسى ذا الرياستين(٣) .

وكان الشاعر فى ظاهر الأمر لا ينقطع إلى فئة دون فئة ، فهو مع أبناء الفرس حيناً وأبناء العرب الخلّص أحياناً . ولا نكاد نقف له على تحيّز ظاهرٍ لهؤلاء دون هؤلاء ، فلم يكن شاعراً سياسيًّا أو حزبيًّا بالمعنى الذى يفهمه الساسة اليوم ، فلم يناضل عن القوم ، ولم يحارب عن قبيلة أو مذهب ، ولم ينتصر لحكم دون حكم على كثرة ما ثار فى أيامه من خلاف بين الأحزاب واضطراب فى أمر الخلافة ، كما كان يفعل الشعراء السياسيون – إذا صح التعبير – كحسان والأخطل والكميت وغيرهم . ولكنه كان يُشيد بممدوحه وفعاله ، فيذكر ما كان له من أياد على الخلافة ، فيصف الواقع ويرسم الحال ، ويقول للفضل بن سهل إنه أزال خلافة وأقام أخرى ، وإنه أحسن فعلاً فى هذا وهذا . ويقول ليزيد بن مزيد إنه دعم الخلافة ببأسه وشجاعته . وهذه الأقوال قد تتخذها الأحزاب دليلاً ومعيناً ، ولكنها لا تدل على عمق الرجل فى فهم الأشياء الخفية وبسط الأسباب لأنه كان بعيداً عن الدوائر السياسية ، كما نقول اليوم ، فيُرسل فى ممدوحه القول من غير

---

(١) انظر ترجمته فى ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١/٤٠٨ ، وتوفى ١٩٣ هـ .

(٢) توفى يزيد سنة ١٨٥ هـ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢/٣٨٥ .

(٣) ارجع إلى ترجمته فى ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١/٤١٢ .

رفع المسبهم

تعليل أو دعم لمذهبه كما فعل غيره . ورأينا أنه فضل قومه الأنصار ، ولكن ذلك كان عن ثورة جامحة ومناقضة للحكم بن قنبر ليس غير ، فإذا كان هذا من السياسة لعصره فليس من السياسة الحزبية فيما نرى اليوم .

وقد قرأنا فى الأخبار أنه هرب مع أنس بن أبى شنيخ ولجآ إلى مكان بعيد وقُبض عليهما معًا ، ومثلا بين يدى الخليفة[1] . فلما سأله عن قوله فى التشيع للعلويين ارتجل بيتًا يثبت فيه ولاءه يناقض قوله الأول ، وذلك ليتخلص من غضب الخليفة وينجو من العقاب والموت . فهل يكون سياسيًّا من وقف هذا الموقف فعاد عن قوله فى سرعة مذهلة نسبت إلى ذكائه وعظيم ارتجاله ؟ ولعله فى هذا عاد عن قوله لا عن مذهبه لأننا لم نجد له مذهباً يتمسك به فى التشيّع أو فى غيره .

وكلّ ما فى الأمر أن مسلم بن الوليد كان شاعرًا يحب أن يعيش ، وأن يعيش مكفى المئونة خلال الفترة الأولى من حياته فإذا وجد ممدوحاً يكفيه أمره وبيته وأولاده انصرف إليه يمدحه فينال من عطاياه ، ويعود بهذه العطايا لينفقها فى أمر حياته . ولعله كان ينصرف إلى قلبه وحبّه وفنه وصحبه ، وليس معنى ذلك أنه قليل الهم فى الأمور الخطيرة ، لا يطمح إلى مُلك أو حكم ، فقد رأينا فيما بعد أنه طمح إلى ولاية ، فأصبح عاملاً للبريد بجرجان ، كما طمح غيره فى عصره وبعد عصره ، لأن الشعراء أصبحوا يُمسكون بزمام الأمور فى مواقع كثيرة من الحكم . ولكننا نظن أن المجال كان ضيقاً أمامه أول الأمر فاتسع فيما بعد معتمدًا على معارفه وصحابته ، لذلك سعى إلى الاتصال فحظى بالمثول أمام الرشيد ، واتصل بيزيد بن مزيد ثم بالفضل بن سهل فأوصله الأول إلى المأمون وأبلغه الثانى إلى الرشيد ، ولكنه حين وصل اكتفى بالمدح واكتفوا بالعطاء فأعطاهم وأعطوه . . .

(١) العقد الفريد طبعة مصر ١٩٤٠ م ، ١٨١/٢ .

والغريب فى الأمر أنه كان يمدح البرامكة ويمدح يزيد بن مزيد . والبرامكة هم الذين دبّروا ضد يزيد لإبعاده عن حبّ الخليفة وعطفه ، فقد اهتبلوا فرصة خطيرة ، هى ثورة الوليد بن طريف الشارى(١) زعيم الخوارج ضدّ هارون الرشيد ، وزينوا للخليفة أن يُرسل جيشاً بقيادة يزيد لحربه . فأصبح يزيد بين أمرين : إما أن يحارب ابن عمه الوليد فيقتله أو يُقتل ، وبذلك يرضى الخليفة ، وإما أن يقف إلى جانب ابن عمه الوليد فيقع فى غضب الخليفة . وشاعرنا انتصر ليزيد فوقف يمدحه ويثنى على بطولته وجهاده ، فلم نر أن البرامكة غضبوا لهذا علناً ، ولم نرهم يتحولون عن حبه والعطف عليه جهاراً ، وإنما رأوا أن الشاعر انتصر ليزيد فانتصر للخليفة العربى القرشى ضد الخارجين على حكمه ، ولعلهم سكتوا حين أخفقوا فيما دبّروه سرًّا ، وأظهروا الفرح لهذا ، وهم على غيظ وحنق شديد .

وقد كان مسلم بن الوليد وفيًّا لممدوحيه يصلهم بشعره ويصلونه بالعطايا ، فيقف منهم حتى النهاية موقفاً جريئاً فيما نظن . فهو قد نال من عطايا يزيد بن مزيد الشيبانى حتى ما يستطيع القارئ أن يصدّق مبلغها . نُقل إلينا أن يزيد رهن ضيعة من ضياعه ذات مرة ليعطى الشاعر خمسين ألفاً من الدراهم ، وأرسل إليه مرة أخرى عشرة آلاف درهم ، وأعطاه بحضرة الرشيد مئة وتسعين ألفاً من الدراهم كذلك ، وأقطعه إقطاعات تبلغ غلتها مئتى ألف درهم .

وتؤكد الأخبار(٢) أن الخليفة الرشيد نفسه كان يستحث يزيد بن مزيد على إعطاء مسلم والإغداق عليه لما كان يرى من قوة شاعريته وجميل إجادته ، بل إنه كان يعاتب يزيد على تقصيره فى هذا السبيل ، ويتهمه بأنه ما يزال مقيماً على أعرابيته ، فمنح الخليفةُ يزيد بن مزيد لهذا مئتى ألف درهم يعوض عليه

---

(١) خرج الوليد بن طريف الشارى على الرشيد سنة ١٧٨ هـ ، وقتله يزيد سنة ١٧٩ هـ .

(٢) مخطوطة الأغانى ، بالورقة ٤١ ظ .

كرمه ، وأعطى الشاعر ، ويزيد حاضرٌ ، مئتى ألف أخرى .

وأخبرنا الجهشيارى[١] أن حاشية الرشيد كانت تزيّن له بشعر مسلم بن الوليد ، وأن الخليفة استمع إلى رأى النقاد وأطاع حكمهم فبرّ الشاعر وأكرمه . وهذا البر والإكرام بلغا حدًّا أدهش النقاد فعجبوا للأموال التى كان ينالها ، حتى إن المعاصرين فى زماننا وقفوا عند ذلك مستغربين[٢] .

هذا بعض حاله مع يزيد بن مزيد ، وأما حاله مع الفضل بن سهل فقد جمع فيه المال إلى العمالة والولاية . وكان الفضل بن سهل ذو الرياستين حين تسلّم الوزارة أعطاه فأغناه ، وقيل إنه وهبه ثلاثين ألفاً من الدراهم . فلما راح يطالب من جديد ذَكره الفضل بما أعطاه ، فأجابه ماغَناى فى ألف ألف ؟ . وحين بلغ الشاعر سنًّا متقدمة ، اتصل بالفضل يُريد أن يمدحه بنشيد جديد فاستغنى الفضل وامتنع وقال : إنى لأجلك عن الشعر ، قال له الشاعر : فاغننى بما أحببت من عملك ، فولاه بريد جرجان . وقيل المظالم بجرجان[٣] ، ثم قلّده الضياعَ بأصبهان ، وضمّ إليه رجلاً يأخذ مرافق العمل ، ويطلق له منها شيئاً بقدر نفقته ويبتاع له بالباق ضياعاً . وذلك حين عرف الفضل أن شاعرنا متلاف مسرف ينفق جميع ما بيده ويعود إلى الطلب . وقد كنا نود أن نقف على الشعر الذى أرسله مسلم بن الوليد فى الفضل بن سهل لنعرف أثر هذه العطايا فى نفسه وما كان يقوله ، ولكننا فقدنا كل شيء خلا أبيات رفعه شاعرنا فيها إلى مقام عظيم فجعله يسيِّر الخلفاء ، ويقيم خليفة ويزيل خليفة – كما رأينا منذ قليل – وأضعنا رثاءه فيه كذلك ، فقد قاله فى ظرف حرج يخاف فيه الناس أن يتكلموا وأن يقولوا خيرًا فى الرجل . ولكننا نتصور هذا المديح حين نقرأ ما قاله فى يزيد بن مزيد وقد بلغنا بعضه .

---

(١) الوزراء والكتاب ، ١٩٣ .

(٢) انظر ما كتبه المرحوم الرئيس محمد كرد على فى مقدمة كتاب المستجاد للتنوخى ، ص ٥ .

(٣) روى صاحب الأغانى أنه تولى المظالم بجرجان ، ثم قال إنه تولى البريد .

وحال الشاعر مع الفضل بن يحيي البرمكى فى العطايا والأموال لا يقل فيما نقلوا عن حاله مع يزيد وابن سهل ، فقد دخل صريع الغوانى على الفضل بن يحيي وأنشده اللامية وفيها :

وردتُ رواق الفضل آملُ فضلَه   فحط الثناء الجزل نائلُه الجزلُ

فطرب الفضلُ طرباً شديدًا وأمر أن تعد الأبيات فعدَّت ، فكانت ثمانين فأمر له بثمانين ألف درهم . وقال : «لولا أنها أكثر ما وُصل بها شاعر لزدتُك ، ولكنه شأو لا يمكن تجاوزه ، يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة»(١).

هذه هي الأموال الطائلة التي بلغت مسلم بن الوليد على ما نُقل إلينا ، ذكرت المصادر بعضَها ، وأغفلت أخرى من غير شك ، وبالغتْ في ناحية وأهملت أخرى . وهي مبالغ لا يستهان بها ولا يستخفّ بقدرها ، ترفع الوضيع وتغنى المحتاج ، أنفق الشاعر كثيرًا منها فى إسراف ، وصرف منها لزملائه وإخوته وصحبه ، فكان كريماً متلافاً ، ولكنه على ذلك كان لا يستطيع أن ينفق الضياع كلها حين وُلى جرجان ، لأن رجلاً قرره الفضل بن سهل يقوم بالإنفاق عليه كما قلنا . وهو بعد ذلك بلغ مرتبة مرموقة وكان محترم الجانب فنظن أنه طلّق الصِّحابَ وإخوان الصفا ، واعتزل الناس ، حتى قيل إنه رَدّ كل قادم إليه من أصحابه القدماء يريد أن يعود به إلى عيشه السابق . قالوا : «كان دعبل الخزاعى متعصباً لمسلم مائلاً إليه معترفاً بأستاذيته حتى ورد عليه جرجان فجفا مسلم وهجره دعبل»(٢) ؛ فهل هذا يعنى أنه هجر الصبا والغوانى ، وترك الشعر فيهما ، وأنكر لقبه ، وكره أن يدعى به لمكانه من الحكم وموضعه من الجاه ، فزهد فى تلك الحياة القديمة المترعة بأفانين الهوى ولذائذ الشباب فقيل إنه زهد ونسك وأتلف ديوانه فرمى به فى نهر جرجان .

---

(١) المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخى ، ١١٤ .

(٢) انظر خبره فى الأغانى وغيره .

والمرزبانى[1] ينقل إلينا خبرًا نحب أن نقف عنده ، وهو أن عبد الله السمرقندى الضرير الخارج مع سيّار على الخليفة المأمون – وكان راويةً أديباً – رأى مسلماً فى جرجان وهو يتولاها فتلقاه مسلم فى لهفة وشوق وحَدَّثه فى إلحاح عن أخبار بغداد وسأله عمّن بها من الشعراء ، فأجابه يحدثه بأخبار أبى العتاهية وأبى نواس وروى له من أشعارهما ، فوجد مسلم فى كل شعر منها موضعاً للنقد وبَيّن مآخذه عليهما . وهذا الخبر يدلنا على أن شاعرنا ظل طويلاً يفكر فى بغداد وفى الشعراء بها ، ويَحِنُّ إلى معرفة ما يجرى فى دار السلام وقد بعد عنها .

• • •

موت مسلم :

ولا شك فى أن حياة مسلم بجرجان كانت بعيدة كل البعد عن حياته فى العراق وخاصة فى بغداد ، فقد كان شاعرًا مداحاً يجرى وراء المال والأحباب والأصحاب فأصبح موفور النعمة مكفى الحاجة عاملاً من عمّال المقاطعات . وإقليمُ جرجان كما نعلم يقعُ فى الجنوب[2] الشرقى لبحر الخزر ، يضمُّ السهولَ العريضة والأودية الواسعة ، يسقيها نهرا جرجان وأترك ، وقد كثر فيه النخيل والنارنج والأعناب ، وتوفّرت فيه الخيرات والفواكه .

ولكنّ هذا الإقليم على جماله بعيد ناء عن مسقط رأسه وموضع خلاّنه ومسرح أيامه فى أقصى الأرض بالنسبة إلى تلك الأيام . وذلك فيما رأوا قد بعث الحنين فى الشاعر ودفعه إلى الشعور بالغربة ، فأحسّ بأن الأيام لن تتيح له العودة إلى تلك الربوع وأنه سيقضى فى هذه التربة الجديدة بين مواليه ومستخدميه وفى ضياعه وأملاكه ، فكانت نفسه ترسل الزفرات حرى فى يأس وألم ووحشة ،

---

(١) الموشح ص ٢٥٩ .

(٢) انظر بلدان الخلافة تأليف لسترنج ، ومعجم البلدان لياقوت .

حتى نقلوا إلينا أنه عاش حزيناً أواخر أيامه ، كما عاش الشعراء الرومانطقيون فى الغرب ، يخاطب الصخر والحجر والشجر ويبثها آلامه وعذابه ، بل إنه فعل كما فعل الشعراء العرب قبله وبعده حين ناجوا الطير والحمام والخيام والأثافى والرياح ، فرووا أنه نظر مرةً إلى نخلة من نخل جرجان فناجاها ، وكأنه يرثى نفسه فقال :

ألا يا نخـلة بالسفـ ـح من أكناف جرجان
ألا إنى وإيـاك بجرجان غريبـان

ولعلّه بكى وبكى كلما مرت أمام ناظريه مشاهد الكوفة ومسارح الطفولة ومراتع الشباب ومواضع اللهو من بغداد ، ومدارج المرح بين الإخوان والأحباب . ولعلّ هذا الدمع قد ظل يخدد من وجنتيه ويخط من جبهته ، حتى كانت آخر سطور العمر ، فقضى شاعرنا غريباً نائياً سنة ٢٠٨ للهجرة .

ولا شك فى أن الشعراء من أصدقائه بكوه ورثوه ولكن رثاءهم لم يبلغ إلينا ، وإنما نقل أبو بكر الصولى أن خارجة بن مسلم الأنصارى رثى أباه فقال :

تعطّلت الأشعارُ من بعد مسلم وصارتْ دعاويها إلى كل معجم
إذا مرضتْ أشعارُ قوم فإنه يجيئك منها بالصحيح المسلَّم

أجل كادت تتعطل الأشعار من بعد مسلم ، والقرن الثالث يحبو نحو النور ، ولكنه أعلن عن شعراء كأبى تمام والبحترى يعيدون سيرة مسلم بن الوليد ، وينظرون إلى ديوانه نظرة الجاهليين إلى اللات والعزى إعجاباً بشعره وإكباراً لتفوقه.

وسنرى فى الصفحات التالية سرَّ هذا الإعجاب حين نتحدث عن هذا الشعر.

رفع
المسيرهم

الفصل الثاني

شعر صريع الغواني

طريقته ـ المديح ـ الهجاء ـ الرثاء ـ الوصف ـ الغزل ـ منزلته ومكانته

طريقته :

عكف مسلم بن الوليد منذ صباه على مسجد الكوفة ـ كما رأينا ـ يستمع إلى القرآن والحديث ويصغى إلى أطيب الشعر والنثر . حتى حفظ منه حظاً غير قليل ، فأصبح راوية لما يحفظ . يردده بين عترته وأصحابه وخلانه . يعيد على مسامعهم شعر امرئ القيس ، وزهير بن أبى سلمى ، وعمر بن أبى ربيعة . والنابغة الذبيانى ، ولبيد ، وعلقمة الفحل ، وغيرهم من فحول الشعر العربى . فقد كان يحب أن يترسم خطاهم وأن يقلد نشيدهم وهو ناشئ من رواد الأدب ، يحفظ الغزل ويهتز له ، ويعشق الشعر العاطفى ويطرب به . ولعل هذا العشق دفعه إلى أن يخوض فى ميدانه فاندفع يدمدم بأبيات فيها رقة وفيها حنين وعاطفة . ولكن عليها طابع الشباب المبتدئ ومسحة التقليد ، لأن صاحبها لم يهتد إلى سبيل واضحة وطريق بينة ، وهو ما يزال فى جناحين ضعيفين هزيلين يطيران به فوق السفح وما يطيران إلا ليقع من جديد بين تصفيق الحاسدين وإعجاب المخلصين ودهشة الكهان فى الشعر . فقد كان الشاعر يزحف نحو الإلهام ويسير نحو الإبداع شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به السن ، ولكنه كان يمشى فى بطء وحذر ليجود صنعته ويتقن حرفته ، يتسلح بالثقافات التى كانت لعصره فى الكوفة ، ومنها قراءة الكتب الدينية والأسفار الأعجمية .

ولقد أعجب مسلم بشعر البادية ، فيما نرى ، كما أعجب بشعر الحاضرة

رفع المسهم

فمزج بينهما ، وأحب أن يفتنّ فى ألوان الشعر ، فاتخذ طريقة بعض القدماء فى التكلّف للفظ والدوران حوله ، وألحّ على تشابه العبارات واختلاف معانيها ، فكأنّه نصب نفسه فى رأيهم لاصطياد الصّور اللفظية والبديعية[١] . وهو فى ذلك يتبع طريقة كثير من الفحول يجوّد فى المعنى ويُعنى بالمبنى ، وكان ذلك من همّ الشعراء فى عصره ، يحنّون إلى الشعر القديم ويسعون إلى مجاراته ، فكان جرسه حلوًا فى الأذهان وكانتْ معانيه مقربةً إلى القلوب العربية المخلصة تريد أن تتصل بالماضى وأن تعكف عليه وأن تتقرب منه ، فكأن فى عملها هذا تعصباً للعرب وحبًّا لهم وإخلاصاً لطريقتهم ، وتمسّكًا بعمود الشعر العربى .

ذلك ما كان لشباب مسلم بن الوليد حين أراد أن يتثقّف بالشعر ، فاختار طريقة الفحول ، حين رسم الصحراء والرياح والحيوان والنهر والسفينة والخمرة والمرأة فى ألواح عربيّة الوسم ، وزيّنها بابتداعه واختراعه متأثرًا بالوسط الذى عاش فيه والثقافات حوله ، فكان يتيه ببيتٍ شعر وجد معناه فى التوراة ، وكان يعيب شاعرًا لبيت فى قصيدة لا يرضيه معناه أو مبناه ، فكأنّه أخذ بأحسن مدارس بغداد وهو يسير فى طريق الشاعرية المثلى .

فلما اشتهر أمر مسلم ، واكتسى ريشاً يطير به راح ينشد فى البرامكة[٢] ، فتردّد ببغداد شعرَه . وقد نُقل إلينا أنه كان يُملى شعره والقوم يجتمعون حوله يكتبونه ، وروى ابن بنته أنه كان ينشد الدالية : «لا تدع بى الشوق[٣] ..» وعليها على الناس كما رأينا . واستطاع أن يقف لأبى نواس وغير أبي نواس حتى قيل إنّ المأمون شهد له فى مجلس خاص أصحابه فى شعر مسلم وغيره فقال لهم :

(١) البيان والتبيين ١/ ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ، طبعة الأستاذ أحمد محمد شاكر ٨٠٣ .

(٣) الموشح للمرزبانى ٢٨٩ .

(٤) انظر ترجمة الأغانى لمسلم ، ختام الديوان .

رفع المستهام

« هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره(٤) » . ورأينا أن هارون الرشيد عنّف يزيد ابن مزيد لقعوده عن إكرام مسلم بما يستحق وذلك لما كان يرى من جَودة شعره ، وتفوّقه فى ألوانه وفنونه ، وسنعرض لهذه الألوان ، كما كان يقسمها القدماء من مديح ، وهجاء ، ورثاء ، ووصف ، وغزل .

* * *

المديح :

لقى مسلم من إكرام الأمراء والوجهاء وعطفهم على شعره ما شجّعه على المضى ودفعه إلى القول . فقد رأينا أنّه اتصل بكثيرين من كبراء الدولة العباسية ، وعرفنا أنه مدح يزيدَ بن مَزيد فرأى فيه البطولة والشجاعة والفروسيّة والكرم . ويزيد ابن مزيد الشيبانى من أسرة رفيعة فى العروبة مشهورة بالندى والبأس ، شاركتْ فى نصرة الخلافة ودعم الحكم ، فكان عمّه معن بنَ زائدة عَلَمًا يُشار إليه بالبَنان ، وكان يزيد ابن أخيه شبيهاً بعمّه وفتى من فتيان العرب الأمجاد الذين كتبوا بسيوفهم سطور الخلود وبسطوا بأيديهم ركاباً للمعوزين ، ونشروا أموالهم للمعْتفين ، فكانوا صوى فى طرق الأمن والخير وأعلاماً فى الحرب والسلم ، عليهم تُعقد الآمال ، وقد شهدت كتب التاريخ والتراجم بمزاياهم واعترفت بأقدارهم ، فلا على الشاعر أن يصور ما ترى عيناه وما تسمع أذناه وما يردّدُ الشعب كلّه ، فقد كان فى الصفات المثالية الحقيقية مجال للشعر لا يتلجلج فيه لسان ولا يجمجم فيه بيان ، فكيف إذا طرقه شاعر كمسلم يؤمن بهذه المثل فيما يبدو ؟ إنه ليوفق فيه أتم التوفيق فيما نتصور . وله أن يقول فى يزيد :

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب بعد الخليفة يا ضرغامـة العرب

ذلك لأنه رأى أن يزيد نجح فى إخماد الثورة على الخليفة الرشيد ، حتى

لكأنه يذكّر المسلمين بسيف رسول الله ، وقد وسع حلمُه وكرمه الناس جميعاً :

إذا الخِلافةُ عُدَّتْ كُنتَ أَنْتَ لها عِزًّا وكان بنو العباس حُكَّاما

وفى ذلك يبلغ مسلم بممدوحه أعلى المراتب فيجعله عزَّ الخلافة ، ويجعل الخلفاءَ حكاماً ، فكأنَّه يقول كأنك شمس والملوك كواكب ... وما ندرى مبلغ الصدق فى هذا القول ، والشعر فيما يقولون مكمل للتاريخ ، يُظهر جوانب خفية لا يثيرها التاريخ . فكيف سار هذا البيت وغيره ؟ وكيف وقف البلاط منه حين سماعه ؟ لا شك فى أن أولى الأمر حملوه محمل المديح الذى يتجاوز أقدار الممدوحين ويبالغ فى وصفهم ، فيجعلهم رءوساً ويجعل الناس غيرهم عند السفح . فإذا تناول ممدوحاً آخر رفعه كما رفع الأول وجعله حيث جعل سابقه ، فتتنافس الذرى وتضيع القيم ، ويضل الذين يعيشون مثلنا بعد عصور عديدة فى فهم الصدق والكذب والمبالغة والإسراف . ولكنَّ الذى يعزّينا أن مسلماً لم يفتح هذا الباب ولكنه وسعه فولجه بعده من بالغ فيه ، فكان المديح الرسمى طرقه أبو تمام والبحترى والمتنبى ، واقتدى بهم شعراء القصور والأمراء فأسرفوا وأسرفوا حتى اقترن المدح بالإسراف والمبالغة ، وانحطَّ الشعر بعدهم فى عصور الاستجداء إلى دركة بعيدة ، يغلو المادحُ فى القول كلما غلا الممدوح فى العطاء . ولهذا رمى النقاد شعراءَ المدائح بالشك فيما يصفون .

وموقف مسلم بن الوليد من يزيد بن مزيد موقف عجيب فى الإعجاب به وإكباره وإنزاله منزلةً ضخمةً واسعة ، فقد قال فيما قال : إنه لولا يزيدُ لأضحى المُلكُ مخذولاً ، ولأفسدتهُ غاهات تعمل فيه حتى تقتله ، فكأنه ثانى الخليفة بل كأنه عماد الخلافة بدونه تسقط وتزول . وأَعْجَبُ منه هذه الصور الفنية التى أعارها شاعرنا لممدوحه فجعله كشهاب الموت حين يغشى الوغى يخوضها وهو ضاحك الثَّغر مبتسم ، وجعله كالأجل يسعى إلى الأعداء فى الحرب فيستلّ أرواحهم حين يريد . ثم رَسَمَهُ يطعم الطير من جثث أعدائه فهى تتبعه فى كل مكان يحارب

رفع المسيّهم

فيه فتحوّم عصائب الطير حوله وتسير وراءه تنتظر العيش والخير على يديه.

وأما فى السّلم فالبطل يزيد كعبةٌ فى كرمه ، يقصد إليها الناسُ ، ويحج إليها الفقراء والمحتاجون ، كأنه مكة ينتهى عندها السعى ويفد إليها الحُجَّاج من كل فج عميق . وهكذا جمع الممدوح فى برديه ما يُخيف الأعداء ويُفرح الأصدقاء ، وهو أمنٌ للسائل وخوف للمحارب ، يقول فيه :

فافخرْ فما لك فى شيْبان من مَثَلٍ كذاك ما لبَنى شيبان مِنْ مَثَلِ

تَشَاغَلَ النَّاسُ بالدُّنيا وَزُخْرُفها وأنت مِنْ بَذْلِكَ المعروف فى شُغُلِ

وأكثر المعانى التى طَرقها مسلم تَعَاور عليها الشعراء بعده فأفنَوْها فى أبياتهم رسًما وتصويرًا ، وأبلوها فى شعرهم ، حتى لكأنَّ شاعرنا أبو عذرتها ، وكأنه ولَّد معانيها واخترع صورها . فالممدوح هو المنيّة يبعثها هارون على أعدائه ، وهو خير البرية آباء وأكرمهم أخوالاً وأعماماً ، وقد تظلَّم المالُ والأعداءُ شاكين إسرافه فيهم ، يَروى ظمأ السائلين بجدواه كما يروى الرماحَ بدم الأعداء .

وَمَدَح شاعرُنا هارونَ الرشيد فكان فى شعره أقرب إلى الشعر الأموى الذى صدر عن الأخطل وغيره ، يُنيخ به الأسفار ويَسرى إليه ، ويلبس إليه الدُّجى ، وهو كذلك حاكم وبطل :

إذا اخْتَلَفَتْ أهواءُ قوم جمعتَهُمْ على العفو أو حدّ الحسام المُهَنَّدِ

وشعره فيه أقرب إلى صور القدماء ؛ ففيه معانيهم وألواحهم ، يعجّ بالنوق والبادية ، يصفه متخيلاً عن بعد وصفًا عامًّا ينطبق على كل حاكم ومسئول ، فكأنه شعر شبابه ، أرسله إليه ، وليس أجود شعره .

ومدح الخليفةَ الأمينَ محمد بن هارون الرشيد ، فافتتح بالصور البدوية وركب إليه النوق ، وأضاف إليها صورًا جميلة محببة مقربة ، فمدح قريشاً وقال :

رفع
المسيّهم

فتًى تُهين رقابَ المـــال راحتُه ... إذا أتاها مريدُ المال يَبغيها
حَلَّتْ قريشُ العلا من كلّ مكرمة ... وحـــلّ بيتُك فى أعلى أعاليها
فُقْتَ البريَّةَ من كهل ومن حَدَث ... وفاق آباؤك الماضُـــون ماضيها

وهذا شعرٌ يليقُ بالخليفة ، فهو أكرم الناس ، وهو مُثبت الملك بعد أبيه ، وهو الشجاع الطاعن فى الأعداء قد أطفأ نارًا مؤججة ضد الملك ، وقتل أفاعى الثائرين ، ووطد الحكم وحفظ البلاد .

ومدح داودَ بن يزيد المهلبى وسعى إليه وركب على قصيدة من الشّعر الفحل ، فجعله قلادةَ قومه ، وجعل قومه فوق الناس ، فهم مظفّرون وهم كرماء ، وداود من أشجع الشجعان قتلَ الأعداء وأطاح برءوس الثّائرين وكان كريماً بنفسه يسخو بها كما يسخو الناس بالمال :

يجُودُ بالنَّفس إنْ ضَنَّ الجَوَادُ بها ... والجُودُ بالنَّفْس أقْصى غَاية الجُودِ

وهذا البيت كان يهزُّ القدماء ويرون فيه بيتَ القصيد فى المدح ، ويجعلونه غاية الغايات فى السداد والإجادة ، وصُورهُ الأخرى فيه كثيرةٌ موفّقةٌ ، جعله فيها أيامَ الحياة على فعل حميد وجدّ غير منكود ليس عنده إلّا البأس والجود .

ومدح زيدَ بن مسلم الحنفى ، فوصفَ شجاعتَه وبأسه ورسم كرمه وسخاءه ، فصوّره يصبُّ المالَ فى السلم والدَّم فى الحرب ، وكفَّاه للمعروف لا يكادان ينقبضان ، فما مرَّ يومٌ فى حياته إلَّا جرى على الناس من كفَّيْه بؤسى وأنعم ، فأثار حروبَ المال بالبذل والندى ، وأخمدَ النيرانَ ، وقتل الأعداءَ وأبلى أحسن البلاء ! فاللَّيل والنجوم والناس تُخبر عن فَعاله وصفاته ، فكيف لا يلجأ إليه شاعرُنا ويمدحُه فيجد عنده العطاء ، إنَّه ليرى أنه باقٍ على حَدَث الزّمان كاللَّيث فى الحرب يرحل فى صفٍّ من المكارم ، وهو أكرم رجل رآه مسلم بن الوليد حتّى قال فيه :

رفع المسهم

أفتَى حنيفةَ أنتَ أجْوَدُ واحدٍ كفًّا وأكرمُ منْ يُعَدُّ فَعَالا
ما قلتُ فى أحدٍ سواكَ علمتُه إلاَّ رأيتُ القولَ فيه مُحالا

وهو يُصارحنا بأنه استطال به على الزمان وريبه ، وأمَّل منه النوافل فأصابها وصدق ظنُّه ، ونال ما وعده به فوجده فتى قومه كرمًا وجودًا وأحسن الناس فعالا .

ومدح مسلمُ بنُ الوليد غير هولاء ، وغصَّ ديوانُه الذى وصل إلينا بأسماء الممدوحين كجعفر بن يحيى البرمكى ، وأخيه الفضل ، وسهم السرخسى . وهاشم ابن عم يزيد من قصى ، ومحمد بن منصور بن زياد ، والحسن بن عمران بن عمر الطائى ، ومَسْلمة ، وداود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وحماد بن سيّار . ذلك إلى مدائحه فى الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمأمون . ويستطيع المؤرخ الاجتماعى أن يرجع إلى الديوان فيتسقَّط أخبار هؤلاء الرجال ليعرف مكانتهم من عصرهم وقومهم وبلدهم ، وما شغلوا من منصب وما نهضوا له من عمل ، فقد سكت التاريخ الرسمى عن أكثرهم ولم يُترجم لكثير منهم فمات ذكرهم فى دنيانا اليوم إلاَّ ما كان من صفحات هذا الديوان . وهذه يد يسديها الشعراء والأدباء حين يعرضون لرجال عصرهم فيسجّلون أعمالَهم وما قاموا به . ويد مسلم بن الوليد كريمةٌ فى هذا ؛ فقد حفل أكثرُ ديوانه بالمديح ولكنه خلا من مقدمات تاريخية بين يدى قصائده تشرح سبب الإنشاد ، وتُبين عن صلة الشاعر بالممدوح ، كما رأينا فى دواوين الشعراء المشهورين قبله وبعده .

وهذه المدائح – كما رأينا – تقوم على وصف الندى والبأس ، فترسم كرم اليد وشجاعة النفس ووفرة البطولة وعظمة الإقدام ، يقتل الاعداءَ ويكرم الأصدقاء ، ويقيم صرح الخلافة ، ويهدم بنيان العصيان ، ويُشعل نار القرى ويُخمد شعلة الثورات . وتكاد الأغْراض فى جملتها تتشابه ، ولكنَّ الشاعر يطرقها بأساليب عظيمة من بيانه وصوره ، فيحلّق فيها ، ويطير فى سماء الخيال على متن المعانى الرائعة

رفع
المسيَّهم

والمبانى الرائقة ، تجعله فى طليعة شعراء المديح وتُحله الصدارةَ بينهم ، فكأنه إمام لهم يقتدون به على الزمان ، يرجعون إلى صوره كلّما أعوزهم ذلك كما يرجعون إلى معجم الصور الشعرية والمبانى البيانية ، فهو فحلٌ مطبوعٌ ، عَبَّدَ للشعراء بعده سبل المديح الرسمى – إذا جاز التعبير – فساروا وراءه ، بعضهم يجرى وبعضهم يَظلع؛ ولكنّه يظل المُجَلّى فى حَلْبَة المديح والحماسة على كر العصور فى المشرق والمغرب .

* * *

الهجاء :

كان مسلم بن الوليد يتسلّق سبيل المجد والخلود فى كثير من الجدّ والسعادة ، فينال الحظوة والمال ، ويروج شعرُه ويصفّق له السلطانُ والوجهاء . وكان هذا سبيلاً إلى بعث الغَيرة والحسد والتسابق فى نفوس كثير من الشعراء ، فقد عجبوا لجرأته فى شعره ، يتناول به الخلافة والأمراء والقبائلَ والأمجاد ؛ فوقفوا فى طريقه يريدون أن يردّوه عن ورود مناهل الشهرة ، فتناولوه فى شعرهم ووقع بينه وبينهم ما كان يقع بين المتعاصرين ، فكان هجاء لا نشك فى أنه كان لاذعاً وأنه كان قويًّا . فالرجل مطبوع كما رأينا ، والهجاء عكس المديح ألِفَهُ الجاهليون والأمويون ، وصاغوا فيه ألواناً من الذم والتندر والسخرية بالقبيلة والنسب والعرض ، وليس لشاعرنا أن يقصّر فيه . ولكننا لم نقع له فى الديوان على شىء كثير فى هذا الباب يجعله فى طليعة شعراء الهجاء ، على أننا قرأنا فى الأغانى أن مسلماً كان يقول : «الهجاءُ الموجع آخذ بضبع الشاعر وأجدى عليه من المديح المضرع ، وما ظلمتُ فيه أحدًا ، وما مضى فلا سبيل إلى رده»[1] ، ولعلَّ هذا يُشير من طرف خفى إلى أن صريع الغوانى نَدم لتورّطه فى الهجاء ، فسعى إلى محوه من الديوان ، فوفّق فيما سعى إليه .

وقد جاءنا أنه هجا يزيد بن مَزْيد فشكاه هذا إلى هارون الرشيد ، فاستدعاه

(١) انظر ترجمة مسلم فى كتاب الأغانى ، الفصل الذى نشرناه بعد الديوان .

الرشيد ، وقرّعه وهدّده وقال له : «لئنْ بلغنى أنك هجوته لأنزعنّ لسانك من فكيْك » ؛ فأمسك عن متابعة الهجاء . فأين هذا الهجاء ؟ إننا لا نجده فى الديوان ولا نقع على شىء منه فى الأخبار ، ولا شكَّ فى أنه كان موجعاً يضطر الرشيد إلى مثل هذا التهديد . وهو موجع فيما نظنّ لأنَّ شاعرنا يراه آخذ بضبعه من المديح ، ولكنه ظالم فى يزيد ، فقد أغدق عليه من قبل فى العطاء وأجزل شاعرُنا له فى الثناء ؛ ودنيا الشعراء غير دنيا العقلاء الحكماء يسارع الشعراء فيما يقولون فيسير عنهم قولٌ حسن ويسير بعده قولٌ سيئ ، فما يدرى الناقد إلى أى شىء يعزو ذلك من وفاء الشاعر وأمانته أم تنكّره وخيانته . وليس ذلك غريباً ولا هو بالعجيب فقد مَرَّ مثله فى عصورنا الأدبية ، حتى أسقطوا الشاعر لذلك وحسبوه من ذنوبه .

وكلّ الذى بلغنا من هجاء الشاعر مقطعاتٌ وقعتْ فى الديوان ، قال بعضَها فى موسى بن خازم بن خزيمة ، وفى العباس بن الأحنف ، وفى سعيد بن سلم ، ولكنها ليست ذاتَ خطر بالنسبة إلى شعره . وذكر الأصفهانى واهمًا أن صريع الغوانى هجا معنَ بن زائدة ، ولم يَرْوِ له شيئاً من هذا الهجاء . ولكنه أورد ما وقع بين مسلم والحكم بن قنبر من تهاج ونقائض ، وروى أن ابن قنبر خذل وأُفحم وكفّ عن مناقضته حتى لقد كان يهرب منه «فإذا لقيه مسلم قبض عليه وهجاه وأنشده ما قاله فيه ، فيمسك عن إجابته ، ثمّ جاء ابن قنبر إلى منزله واعتذر إليه مما سلف ، وتحمّل عليه بأبيه وسأله الإمساك عنه فوعده بذلك»[1] . وقد أثبتَ الأغانى بعد هذا الشعر فى ابن قنبر ، حين هجم عليه مسلم يعتدّ ويهدّد ويفخر بأنه زاخر مرج العباب . وأنه قوىٌّ قادر فتّاك ، وأنه كالنار يُحرق ويبيد ، فشعره فيه يحوى فخر مسلم بنفسه وقبيلته ، وانحطاط ابن قنبر وقومه حتى لقد رأى أن

(١) انظر ترجمة مسلم فى الأغانى ، بذيل الديوان .

للأنصار عزًّا وسبقاً على قريش ، والسلطان من قريش ، مما أغرى الناس فى الوشاية بمسلم لهذا الهجاء حتى انتفى منه – كما يقول صاحب الأغانى – وألصقه بابن قنبر .

ولعل هذا سبب إبعاد الهجاء فى ابن قنبر عن الديوان ، ولكنَّ الأغانى أورده . وأثبت هجاءَ ابن قنبر فيه حتى جعله عبدًا لليهود من بنى النَّضير فى يثرب ، وجعله يخجل من ذكر أبيه عند الناس فهو إنْ انتسبَ إليه أخزاه لأنه حاك دهرًا بغير حِذق للبرود ، وكذاك يحيك مسلمٌ أشعارَه .

وخلاصةُ القول فى هذا الهجاء أنَّه لا يخرج عن أغراض القدماء ومعانيهم ، ولا يرتفع إلى مستوى الإبداع والاختراع والأصالة ، كما يرتفع المديح .

* * *

الرثاء :

ورثاء مسلم بن الوليد يعتمد على ذكر الكرم والندى والشجاعة ، فهو مديح للميت بعد وفاته كمديحه حين حياته يعدّد فيه مآثره وأياديَه فقد رثى يزيد بنَ مَزْيد – إن صح رثاؤه فيه[1] – كما مدحه ، وزاد عليه أنه استخرط باكياً تجود عينه عليه بالدمع . وفى مثل يزيد تَسْخو البواكى ، وذلك أنَّ شاعرنا افتقد المال والنشب فلم يجدهما عند غيره حتى عند محمد بن يزيد . ويفتقده المسلمون حين تلمّ بهم الخطوب والنوازل ؛ فهو البطل النجيد ، ومن عجب أنَّ المنية فتكت به ، وكانت من جنده فخانته ، وهذا المعنى طرقه الشعراء بعده ، وأوغلوا فيه وأسرفوا .

ورثى حماد بن سيار فبكاه بدمع مدرار ، وقرأ السلام على قبر تَضَمَّن الجود واليسار ، فقد كان حلو الشمائل مأمون الغوائل ، لبس الحمد كل حياته فكان خالياً من كل عار :

(١) قلنا فى حواشى الديوان إن ابن خلكان وغيره نسبوا الرثاء إلى التيمى فى يزيد بن مزيد .

دَفّاعُ مُعْضِلَةٍ حَمّال مثقلة　　دَرّاك وتر ودَفّاعٌ لأوتارِ

وهذا أسلوب جاهليٌّ عرفناه فى شعر الخنساء ، وسمعنا صِيَغَهُ عندها ، فلم نستغرب لأَنَّ مسلمًا لم يبتعد عن عمود الشِّعر العربى فى مدائحه ومراثيه ، وإنما كان يترسّم الخُطى للصور العربية الجميلة النقية . وكان يصور من يبكيه فى ثياب المثل العليا عند العرب ، فيتغنّى بها فى شعره ويرددها أبدًا .

* * *

الوصف :

وأما وصف مسلم فقد انتشر فى الديوان الذى بلغنا ، وملأ كثيرًا من صفحاته ، فدلّنا على ابتداع الرّجل واختراعِه ، وخلّف لنا صورًا للحياة التى عاشها ورسوماً للمشاهد التى رآها ، وفيها من الطبيعة الميتة أبدع ما تركت ريشته . ويبدو أن أعظم شعره فى هذا الباب ما كان منه فى وصف الخمرة والشّراب والمجون . فقد سار الشعر فى هذا العصر على ركاب العبث والدعابة ، واختلط الجنسان من ذكر وأنثى ، ونشأت أذواق غريبة على العربى وردت إليه من الفرس والمتشيعين لهم أو المتعصبين على العرب ، سعياً فى إفساد المجتمع حيناً ، أو سعياً وراء العيش الرافه حيناً آخر ، لا تبالى بالمتحرجين والمتزمتين والمحافظين بل تضرب بآرائهم عرض الحائط ، وتجعل صيحاتهم دبر الآذان ، فتذهب مع الريح . والواقع أنَّ هذا الفساد كان يأوى إلى بيوت وأماكن أُعدّتْ له أوّل الأمر فى سر وفى شىء كثير من الحرج والتهرب ، فلم تكن علانيةً ولم تكن على ملإٍ من أهل بغداد ، وإنما كان كثير من أهل بغداد يعلم بمكانها ويعرف من أمور سكّانها وروادها وما يقوم بينهم وبين القيان من غناء وطرب ولهو ورقص ، برىء حيناً وغير برىء أحياناً ، فيثور الشعر ويسود الفن ، وتُعقد المجالس ساعاتٍ من نهار أو ساعات من ليل حتى لتمتد ليالىَ وأيامًا .

رفع المسهم

فى هذا الجو عاش أبو نواس وصحبه يُنشدون ويقولون ؛ فسار شعرهم فى الناس وتناقلَه الماجنون وغيرُ الماجنين حتى لقد حفظه – فيما روى لنا – كثيرٌ من المحافظين على أنه شعر متين قوى يحوى من اللغة أطيب الألفاظ، وأمتن التراكيب . وكان على الشاعر حين يروج أن يقول فى هذه الموضوعات ، فيصف الخمرةَ وشَرْبَها ومن يختلف إليها وما يقعُ فى مجالسها . وكان على مسلم أن يشارك فى ذلك مشاركة فعالة ، فراح يصف ما كانوا يصفون حتى أبدع فيه كما أبدع فى المديح ، وقال فيه حتى اشتهر فى ذلك وسار عنه ، وعرف باللّهو والطرب لأيامه فى بغداد .

وَصَفَ مجالس الخمرة إذًا ، كما وصفها أبو نواس معاصره ، وجعلها مجوسية الأنساب والأصهار ، مسلمةَ البعل ، ربيبةَ الشمس قد غذّتها فى كرمها وفى عنبها حتى استحكم طيبُها ، فهى لم تطبخ على النار ولم تصنع من التمر ، وإنما استودعت دنّها بين الكروم وبعث إليها الشّاعر يخطبُها ، وراح صاحبُها يغالى بمهرها لأنها معتّقةٌ سالت من العنب تغلى كما يغلى دم الحرورى فى القتال ، فشقّ دنها . ودارت الكأس فى المجلس من كف ناعمة رخصة حوراء ، وقام العود يغنّى فى حنين جميلٍ ، تلح العازفة عليه فتضاحكه وتُبكيه ، تعبث بأوتاره كما تشاء ؛ والمزمار يُسعفها فيشدو كذلك ، فكأن فى المجلس نائحات يبكين من ثكل ، ويصوّتن من حزن لفقد فاقدٍ من الأحبّة .

فى هذا الجو حيث حضرت الخمرة المعتّقة وقامت القيان بالغناء والعزف ، ونهض القوم للشرب ، تعالت الكؤوس وانخفضت الرءوس ، وتمايلت الأعطاف ، فإذا أراد الشّارب الانصراف مشى كما يمشى المقيّد فى الوحل ، يتهادى ويتعثّر ، يسقط وينهض كأنه دميةٌ من المطّاط ، صُنعت لملاعب اليوم يتندر بها الأطفال ويعبثون .

هذا مجلس من مجالس مسلم بن الوليد ، أخذناه عنه فحَرَمْنا القارئَ لذة الموسيقا ونغمة القافية ونشوة الألفاظ المختارة والجمل الحلوة ، لنعرض صوره وأوصافه

رفع
المسبر هما
عبد الله زهير الدين

الحيّة للدنّ والشَّرْب ، وما يكون منهم إذا دارت الراح ، وتنقلت الأَقداح . أجل ، إنَّه مجلسٌ من المجالس التى وقعت فى الديوان ، فإن شئت أَن لا تقنع به فإليك آخر يُباريه . تبرز لك الخمرةُ هنا كأختها هناك فهى بنتُ خمار مجوسى رباها وتعهدها ثم صار بعلها فخطبها وتزوّجها ، فإذا هى تجيشُ فتُبدى جوهر الحَلْى إذا جَلَّل أَعلاها الزبد فأَشبهت اللؤلؤ الأَبيض . وإذا مسَّها الساقى أعارت بنانَه صفرتها وصبغتها بالزعفران ، فهو يصيدها قهرًا وتقتله مكرًا . أَما الساقية فهى تدير الكأس فى الشَّاربين ، وترسل فيهم السحر من عينيها النجلاوين فيتعاون السحر والخمر على أَلباب القوم ، ويتساقطون صرعى فى الحبائل بين أَصوات القيان وعزف الآلات . .

ويُعْيِينا هنا حصر هذه الصور فى وصف الخمرة قبل الشُّرب ووصفها حين المزاج ، لأَنها كثيرة متنوعة . فهى حمراء حيناً قد مَزجها بنطفة بيضاءَ من صوب الغمام فعلاها حباب أَبيض كالنرجس الطرىّ . وهى شديدة أَحياناً قد فتر الماء شدتها فتبسّمت عن لون كالشهولة بين البياض والحمرة . يشربها مع نديم حبيب فى الرياض والغياض حتى اصفرار العشى .

ولن نعرض للأَوصاف الأخرى التى تقع عليها فى شعر الرجل لأَنها مستفيضة كثيرة ، ونحن لا نكتبُ دراسة مفصلة فى الرجل وشعره . وإنما أَردنا عرض نماذج من شعره وأَلوان من أَدبه ، فلم نفصّل الأَمر فى أَوصاف السَّفينة والنهر والموج والخيل وغيرها مما تراه فى هذا الديوان .

* * *

الغزل :

وقفنا قبل قليل عند حياة مسلم فى لهوه وأَفضنا فى لقبه والغوانى اللَّواتى تعلَّق بأَوصافهن . ونحن نريد أَن نعرض هذه الأَوصاف لنرى كيف رسمت ريشته

رفع
الميس هما

النساء ، ولنعلم مبلغ تعلّقه بهن وصدقه فى حبّهن . فقد اعترف مرارًا عديدة فى شعره بأنه خلع عذارَه فى الصِّبا وجرى فى سبل اللّهو والمجون، وتبع فى ذلك من سبقه من الأولين ، فلا عارَ عليه ولا جناحَ فى أن يعيش وأن يحبَّ ، وأن يجرى وراء الغوانى فهو خليع فى شعره ، ومن العجيب أن العذّال شمّروا فى لومه كما شَمَّروا فى لوم أبى نواس ، فإذا كان الحسن بنُ هانئ يرى أن اللّوم إغراء ، فإن مسلمًا يرى أن يصل حبل اللّهو بحبل الخلاعة ، وأن يعيش شبابه تِبع نساء كما تبعهن غيره ، وأرسل دمعه فى أثرهن ، فقد نالت منه الأعين النجل وَجَنَتْ عليه . ولكنّه لن يتوب وَسَيَحْيَا أبدًا أليفَ مدام وصديق غناء ورفيق نساء يقضى عمره باللهو والجذل ، فإذا وقع فى أسر أروى أو هند أو سَحَر أو غيرهن صَرَّح بأنّه يكاد يموت صبابةً وحزناً فى حبّهن كما ماتَ غيره ، وهو يَعْجب كيف لا تُبليه الأيام فى هذا الهوى ويظلّ أبدًا بدين الجسم .

وزيارة النساء جميلةٌ فى شعره كجمالها فى شعر امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة ، يصف الخوف من العيون ، فالحَلى منها يُصوّت حين المشى ، والمسكُ ينمّ عليها ، وإذا التقيا لبثا يتحدثان ، أو راح يتحدّث إليها طورًا وإلى القمر طورًا ؛ يشرب من طرفها خمرًا ومن يدها خمرًا إلى أن ينكشف الدّجى ويموت الظّلام ، فيودّع النجوم وهو كاره للصبح أيّما كره ، محبّ للّيل أيّما حبّ : يناجى النجوم أبدًا ، لأنّ النوم لا يألفُ جَفْنه ، فيصاحبُ الشوقَ ويبيتُ بحال السّاهر الرّمد ، الحزين المريض ، بل ربّما أحيا ليله باكياً حتّى الصباح . وهذا العشق أقرب إلى عشق المتصوفة فى الهيام والحزن والتلف ، لو أن الشاعر كان بريئاً فى هواه كما يدّعى . فهو يُشيد بعفّته مع النساء ، ويعيد على مسمعنا دائماً أنه إذا اجتمع إلى محبوبته لم يأثم ، على شدّة ما يعاب عليه ويُرمى به ، فالواشون يتصيدون المحبين ، ويعكّرون عليهم صفو هذه اللّذائذ . وهذه العفة فى

شاعرنا شبيهة بالعفة عند كثير قبله ، لأنها لا تمنع الشاعر من أن يأخذ نصيبه من عينيها وفمها وعنقها وصدرها . فقد يسند براحته خدها ، والرُّكَبُ متدانية ، ولكن الريب بعيدة ، وقد ينال الرضاب العذب ويخلو بها ليلة حتى الصباح ويختمه بالبكاء والشوق والزفرات والوداع ، ولكنه على ذلك كلّه يقول بأنه لم يمسّ منها ما يُخلى مكان العفة من صدره وصدرها ، فيكنّى عن ذلك بأنه لم يمسّ ساقها بيده .

هذا شبابُ صريع الغوانى يُنفق بعضَه فى اللّهو فلا يفوته أمرٌ لأنه يخافُ عمرًا ينقضى وأياماً تزول ، فيركبه الشَّيْب والعجز ، وحينئذ يقعد عن اللّذة والحياة الحلوة ، فيقول :

خُذْ مِنْ شَبَابِكَ لِلصِّبَا أَيَّامَهُ ... هل تستطيعُ اللَّهْوَ حين تَشِيبُ ؟

وعجيب أمره حين يحنُّ للعاشقين ، ويرى بينه وبين الحَمام نسباً وقرباً ، فإذا بكتِ الحَمام أو دعتْ استجابت الأفنان لبكائها ودعائها ، فاهتزت الأغصان وتمايلتْ وأعانتها على النواح والنحيب حين يجفو الحبيب أو يهجر المعشوق ، ولكنه فى هذا أقل سعادة من الحَمام لأنه لا يجد من يحنُّ لبلواه أو يستجيب لشكواه .

وهذا غزل رقيق لا يقلّ عن غزل الفحول قبله أو بعده ، بل لعلّه فى هذا فتح لهم سبل التغزل وأبواب الهوى واسعة ، وقد كانت المرأة فى شعره كالمرأة فى شعر الفحول المتغزلين كذلك ، شبيهة بغصن البان تتراخى وتتمايل من اللين تمايل السكران ، ولها كفل ثقيل وهى إذا ولّتْ انسابتْ كما ينساب الثعبان ، أعلاه خفيف وأسفله ثقيل . وقد رأينا أنه اجتمع إليها وسهر معها وسعى وراءها ، واصطادها بالمربد وغير المربد ، وجرى إلى قبّتها حين اختفى القمر ، وناجاها سرًّا ، وقام بينه وبينها حوار وحديث ، وهذا يذكّرنا بصور قريبة لامرئ القيس أو عمر بن أبى ربيعة أو العَرْجى ، أو مجانين الهوى ، حتى لقد ظنَّ كثير من النقّاد أن هذه اللّوعة وهذا الشوق وهذا الحنين والبكاء والزفرات كلها كاذبة تقليدية صنعها الرجل ليفتتح بها قصائده ويستهل بها مديحه ، فكأنهم يرون أنه آمَنَ بالنسيب فى صدر كلّ قصيد .

ونحن لا ندرى كيف يصدّق الناس وكيف يكفرون ؟ وما هى مقاييس الهوى

رفع المسيّهما

الصحيح والعشق الواقعى ، لأننا لا نرى فى الحب صورة غير التى ذكرها أول آدمى عشق ، فسعى والتمس الأسباب ؛ فإذا اجتمع مال القلب إلى القلب امتزج الدمع بالدمع ، ومات الحديث ، وقام الهمس ، وذبلتِ العيون بدأه امرؤ القيس ولم يُختَم فى الشعر العربى حتى الساعة . ولكن الفرق بين هؤلاء وهؤلاء من المحبين الصادقين أو الكاذبين أن بعضهم التمس المادة وبعضهم سعى إلى الروح ، والمرأة مادة وروح ، فوقف بعضهم عند المادة وَهُمْ كثير فى الشعر العربى ، لم يصفوا استجابة المرأة على أنها روح وعاطفة ، وإنما وصفوا ميلهم وجنوحهم ووقوعهم فى الشرك وهم على ذلك أمراء فى الهوى منتصرون فيه كما كان ينتصر الأبطال فى المعركة ، فكأنَّ الحب معركة يخرج منها العاشق فى نصر أو خذلان ، يبكى أو يفرح ، فلا نعرف سبباً لهذا أو لهذا .

والشعراء بعد مسلم طرقوا الأوصاف عينها فاستحسنوها وطبقوا عليها وملأوا دواوينهم بها ، فجاءوا بالصورة حيناً والمبنى حيناً آخر ، كأنَّهم يصيحون : هل غادر الشعراء من متردم ؟! .. وأما السرقة والانتحال فقد غالى فيهما النقاد ، يريدون أن يخترع الشاعر وأن يبتدع وأن يرسم سبيلا جديدة لقلبه وهواه ، فإذا فعل رأوا أن لسانه تغزَّل لا قلبه فرموه بالكذب والتقليد ؛ وما يدريهم أن الشاعر متقلب متغيِّر يميل لكل غصن ويهتز لكل ريح ، ويظن أنه أحبَّ فإذا شبح جديد يسدّ عليه الشبح القديم ، وينسيه ما كان فيه من أمر ليلى أو هند ؛ ويستقبل السحر الجديد على أنه أقوى أسرًا وأيْدًا فيقع فى العيون والشفاه من جديد كأنه ما أحب وما عشق .

وقد رأينا فى ديوان الغزل العربى[1] أن الشعراء توجعوا وتعففوا ومالوا ، وسهروا حتى الصباح يرقبون النجم والقمر ، وهم على شوق شديد وظمأ عظيم وهوى

(١) انظر المحاولة التى صنعنا فى دراسة «الغزل» لسلسلة فنون الأدب العربى، طبعة دار المعارف بمصر فى جزأين.

رفع
الميساهم

لا يعرف إلّا الله مدى صدقه أوتكلفه إن كان فى الدنيا هوى صادق وشوق برىء .

ولسنا ندافع عن الشاعر كما أننا لا نتحامل عليه ، فقد تحامل عليه قبلنا معاصروه ورموه بالكذب منذ اثنى عشر قرناً فأجابهم بقوله :

وقائلٍ : لستَ بالمحب ولو كنت محبًّا هزلتَ مذ زمنُ
فقلت : روحى مكاتِمٌ جسدى حبى والحب فيه مختزنُ

فهل أقنعهم جوابه ، بأن روحه تكتم عن جسده الحب ، ولا يدرى جسمه السمين أن فى قلبه حبًّا . لأنَّ روحه هى التى أحبت ولأن جسده كان بعيدًا عن حلبة الحب ؟ ذلك ما يردّده العشاق منذ أقدم الأزمان .

ولعلنا أطلنا الحديث فى الغوانى وهواهن ، ولكننا نتحدّث عن صريع الغوانى فى صدر ديوانه ، فلا علينا أن نقول فيه وأن نُبدئْ ونعيد . ذلك لأننا رأينا فى الديوان صورًا تمثل الغزل فى ألوانه جميعاً ، نقلبها فلا يُعجزنا أن نجد الصورة التى نريد ، فيها الحوار كما رأينا ، وفيها اللقاء والطيف ، والدمى والوجوه تسفر كأنها فى الليل مصباح ببيعة راهب ، يصيده النساء بطرفهن ، وقد زرع الشباب لهنَّ رمان الصبا فى أنحر قد زينت بترائب فاتنة ، فيهن الغنج والدلال والحديث الساحر والدّر المتحدر ، يقطف الشاعر منها الرمان ويلمس الأرداف ويلثم الترائب ، فتتزعفر شفتاه ويفوح منه العبير ، فيناديهن : يا سيدى : وأخى ، وسالبى ، ويصيح :

ما لذَّة الدنيا إذا ما لم تكُن فيها فتى كأسٍ صريع حَبائبِ

إنه صريع الغوانى يجد اللذة فى الكأس والحب ، لا يرى فى الحب عارًا ، ولا يقبل اللّوم فى خلع العذار ، ونفسه تموت مرارًا وتحيا مرارًا فى الوجد . فأطاع الهوى وشرب العقار ، ونادم الشادن وأحب الصِّغار ، رحل فى سبيل الحب وقلبه يشتعل بالهوى فى العراق والشام وإيران . فإذا لم يرحل كتب إلى النساء وأجبنه وَعَمَّين عليه فى كتبهن ، ولكنه فَطِنٌ لا تخفَى عليه إشاراتهن لأنه يعرف كل شىء من قلوبهن وأجسادهن وملابسهن ، وأحاديثهن وأسمائهن ، وهو مفتون بهن كما فُتن النصارى بالصليب ، والعُبّاد بالأصنام يردد كلمة الحب كما يردّد المتصوفة أسماء الله

فهو يجد فى الهوى معجزة الوجود وينادى : « سبحان من خلق الهوى وتعالى » .

وما يكتفى صريع الغوانى بوصف المحبوب ورسم عاطفته نحوه ، وتصوير ما يعطيه من شراب وما يثير فيه هذا الشراب ، وإنما يصف المجالس التى تجمع خلان الصفاء وإخوان العربدة وصفاً دقيقاً ، فيحدثنا عن الكروم تظلّل المجالس ، والحور قامت كغزلان يرتعن فى الرمال ، وقد حاز كل فتى غادته الخريدة ، واتكأ القوم فوق نمارق ، يُسقون بالطاس لا بالكأس الصغيرة ، فإذا شربوا جالت بهم فى طرق السرور ، وركبت بهم سبل اللذائذ .

وقد أجاد مسلم فى هذه الأوصاف وحلّق فى هذا الباب من الغزل وما إليه لأنه عكف عليه عكوفاً أشبه ما يكون بالاحتراف – كما نقول اليوم – ، فقال إنه لم يصحُ من لذة ولا طرب ، وإنه كان أبدًا قرين اللّهو واللّعب ، وأنّ نفسه تنازعه اللّذات واللّهو دائبة ، يبكى وينتحب لبعد الأحباب والأصحاب ما دام فى سن الشباب . فإذا انقضى الشباب رأيناه يحدّثنا عن هواه حين مات وعن جهله حين انتهى ، فطوى شرّة اللّهو ، وأطاع داعى الوقار حين طوى شرخ الشباب ، فهالته شيبة فى رأسه كأنها إحدى المصائب ، لذاك بكى هواه ونقش تمثالاً لوجه محبوبه فى الترب ، يسقيه من ذوب عينيه ويسفح تضرعه لشدة الكرب ، حتى قيل إنه تبدّل وتغيّر ، فزهد فى كل شىء ، وتاب وأناب فى هذا الباب ، فسكت فيه شعره حتى قضى .

تلك بعض ألواح الغزل سردناها وعرضناها كما جاءت فى الديوان ، لم نرتبها ولم نبوبها لأن شعره لم يؤرخ – كما قلنا – ولم تسبقه مقدمات تدل على زمان القول وأسبابه ، فما استطعنا أن نحدد ما قيل منه فى الشباب وما قيل فى الشيخوخة ، فاختلطت الصُّور وتشابهت التراكيب ، فحرمنا من دراسة تبين تطور معانيه على الزّمان فى الغزل وغير الغزل . ولهذا بسطنا القول هنا من غير تعمق أو دراسة مستفيضة ، وحسبنا أننا وضعنا هذه الألواح بين يدى القارئ يصعّد فيها نظره ليعرف أين يقع صريع الغوانى من الغزل العربى والإنسانى وأغراضه .

* * *

رفع
المسيهم

منزلته ومكانته :

عرفنا الألوان التى عرض لها شاعرنا فى هذا الديوان الصغير الذى سلم لنا ، وعرفنا أنه سار فى تراكيبه على غرار الفحول المطبوعين ، فيه جزالة[1] وفصاحة ، ورقة ، وحلاوة وطلاوة ، حتى ليمتزج كما قلنا بأجزاء الشعر الجاهلى أو الأموى فيجمع بين الحضارة والبداوة ؛ ويختلط شعره بشعر الفحول فى هذين العصرين .

ورأينا أننا لم نقع له على لين وإسفاف كما وقعنا فى شعر معاصريه كبشار وأبى نواس ، وإنما كان على وتيرة واحدة ، يعيد إلى العباسيين شعر القدماء ويضيف إليه أجمل شعر المحدثين .

وهذا هو الذى رفع به إلى مصاف الطليعة فى هذا العصر ، فترنم به الحادى والشادى وغناه المغنون : وتناوله النقاد فى إكبار ، فقال فيه أبو حاتم السجستانى[2] «خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند يروى تارة ويصلد أخرى » . وقال صاحب الأغانى فيه : «ومسلم كان متفننًا متصرفاً فى شعره » .

وقال المبرّد فيه : « كان مسلم شاعرًا حَسن النمط ، جيِّد القول فى الشراب ؛ وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعانى الظريفة واستخرجها » . وفى أمالى ابن دريد : «وأما مسلم فإنه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين فضمَّنه المعانى اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ورقَّة الحضريين » . وقال فيه الحصرى : «ومسلم أول من لطَّف البديع وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع » . وقال فيه ابن تغرى بردى بالقرن التاسع : « كان فصيحاً بليغاً » .

(١) قال أبو هلال العسكرى فى الصناعتين ٤٧ : « وأما الجزل المختار من الكلام فهو الذى تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها » .

(٢) انظر مختارات المنفلوطى ٤٥ ، وديوان أبى نواس ، طبعة آصاف ، بالمقدمة ، نقلا عن أمالى ابن دريد .

رفع المسيرهم

وقد شبهه ابن رشيق القيروانى بزهير فى إجادة صنعته وإبطائه فيها . وشبّهه بالنابغة لجزالة شعره مع الرشاقة ومعرفته بمدح الملوك . وقَرَنَهُ غيرُ واحد بأبى نواس حتى قال عبد الصّمد بن المعذل(١) : «والله ما جرى أبو نواس قط فى ميدان مسلم ولا تسمو نفسه إلى أن يفاضل بينهما ، إلا أنَّ له حظًّا من الشهرة والذكر ليس لمسلم مثله » . وأطال النقاد فى الموازنة بين الشاعرين مسلم وأبى نواس ، كما أطالوا فى الموازنة بين جرير والفرزدق قبله ، وبين أبى تمام والبحترى بعده .

فقال صاحب العمدة : «ومسلم أسهل شعرًا من حبيب وأقلّ تكلفاً وهو زهير المولّدين » . وقال كذلك : «كان مسلم نظير أبى نواس وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشياء ، إلّا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبّض كان فى مسلم وإظهار توقر وتصنّع ، وكان صاحب روية وفكرة لا يبتدئ ولا يرتجل » .

ونقل أبو هلال العسكرى(٢) : أن أبا نواس أشعر من مسلم لتصرفه فى أشياء من وجوه الشعر . ونقل صاحب العمد أن البحترى يفضل أبا نواس على مسلم لأن أبا نواس يتصرف فى كل طريق ويبتدع فى كل مذهب ، إنْ شاء جدّ وإن شاء هزل «ومسلم يلزم طريقاً لا يتعدّاه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه » . وكان ثعلب يفضل مسلماً على أبى نواس ، ولكن أبا تمام كان يقف منهما موقفاً واحدًا ويراهما فى تعادل وتكافؤ ، وقد رَوى أحمد بن أبى طاهر قال : «دخلتُ على أبى تمّام وهو يعمل شعرًا وبين يديه شعر أبى نواس ومسلم ، فقلت ما هذا ؟ قال اللاّت والعزى ، وأنا أعبدهما من دون الله منذ ثلاثين سنة »(٣) . ويعلّق الصولى على ذلك بقوله : «وهذا كلام ماجن مشعوف(٤) بالشعر . والمعنى أنهما قد شغلانى عن عبادة الله

---

(١) انظر معاهد التنصيص ٣٦١ .

(٢) الصناعتين ١٧ .

(٣) أخبار أبى تمام للصولى ، ١٧٣ .

(٤) مشعوف : مجنون .

عز وجلّ . . على أنه ما ينبغى لجاد ولا مازح أن يلفظ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عزَّ وجلّ ويتاب من مثله » .

وقال ابن قتيبة : « كان مسلم مداحاً محسناً »[١] . وقال المرزبانى فيه : « وهو شاعر مفلق مستخرج للطيف المعانى بحلو الألفاظ »[٢] . وقال ابن شرف القيروانى : « وأما صريع فكلامه مرصّع ، ونظامه مصنّع ، وغزله مستعذب ، وجملة شعره صحيحة الأصول قليلة الفضول » .

وقد رأى فيه كثير من النقاد إماماً فى الشعر وذكروا معانى كثيرة سرقها الشعراء بعده من أقواله . فكان مرشدًا وهاديًا . وقد نقلوا إلينا أنه كان أستاذ دعبل الخزاعى[٣] يرشده ويعلّمه ويريد له التمهل والبطء فى صنع شعره وفى عرضه على الناس فقد قال لدعبل : « إيّاك أن يكون أول ما يظهر لك ساقطاً فتعرف به ، ثم لو قلتَ بعد ذلك كل شىء حسن لكان الأول أشهر عنك ، وكنت أبدًا لا تزال تعيّر به » . وهذه نصيحة أستاذ كبير وناقد خبير ومعلم حرفة وإمام صناعة ، يَحْسن بالأدباء أن يتخذوها قدوة ومنارة .

ولم يخلُ مسلم من النقد والتجريح على عادة النوابغ والأعلام ، يحبّهم نقاد ويرفعونهم إلى أعلى ذرى الإبداع والخلود ، ويكرههم نقاد فيبسطون فيهم لسان القدح والذم . ولا نستحسن أن نبسط المديح فى مسلم فحسب ، ونحن نتحدّث عن منزلته ومقامه . وإنما نحب أن نروى كذلك المثالب التى زعموا . فقد أخذوا عليه أنه سلسل فى شعره ، روى الثعالبى : « وقال أبو على الحاتمى : من عجائب

---

(١) الشعر والشعراء ٨٠٣ .

(٢) الموشح ، ص ٣٧٢ .

(٣) صحب دعبل شاعرنا وروى عنه كثيراً من الأخبار فكان صفيا ، ثم حدث أن تعكر الود فتناوله بأقبح المثالب ، واتهمه بالبخل والشح وسقوط الشعر ونزول مرتبته فيه عن أبى العتاهية والعباس بن الأحنف وأبى نواس ، حتى روى أن مسلماً استمع فى مجلس إلى شعر أبى نواس فسجد مع الساجدين ، فماذا نصدق وماذا نكذب ؟ انظر كتاب الأشربة لابن قتيبة ، ص ٤٣ .

الاتفاقات وغرائبها وبدائعها أنَّ الأَعشى من صدور شعراء الجاهلية ، ومسلم بن الوليد من صدور المحدَثين ، وأبا الطيب من صدور العصريين . وقد شلشل الأَعشى ، وسلسل مسلم ، وقلقل أبو الطيب »(١) . والبيت الذى أثار النقد فى مسلم واحد فى الديوان هو قوله :

سلَّت وسلَّت ثم سلّ سليلُها		فأَتى سليلُ سليلها مسلولا

وكدنا نطوى الحديثَ عنه لولا أن شاعرًا من شعراء القرن الخامس ونقادهم تناوله لذلك وهجاه وثلبه ، وهذا الشاعر هو ابن سنان الخفاجى ، قال فى كتابه(٢) : «ولولا أنَّ هذا البيت مروىٌّ لمسلم ، وموجود فى ديوانه لكنت أقطع أن قائله أبعد الناس ذهنا وأقلهم فهماً ، وممن لا يعد فى عقلاء العامة فضلاً عن عقلاء الخاصة » . فانظر رعاك الله إلى بيت فى ديوان شاعر يثير هذا اللَّوم ، ويسجله شاعر زميل .

وشىء آخر غير هذا البيت دفع النقاد إلى لوم مسلم بن الوليد . فقد ذكر كثير من الكتاب والأخباريين أن مسلماً أفسد الشعر بإدخاله فن البديع . قال الجاحظ فى الحديث عن البديع : «يقول جميعُ من يتكلَّف مثلَ ذلك من شعراء المولَّدين كنحو منصور النَّمرى ومسلم بن الوليد الأَنصارى وأشباههما »(٣) . وقال صاحب الأغانى فى مسلم(٤) : «إنه أول من قال الشعر المعروف بالبديع » . ثم نقل صاحب معاهد التنصيص قال : «وحدث محمد بن القاسم بن مهرويه قال : أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا المعنى الذى سماه الناس بالبديع . ثم جاء الطائى بعده فتحير(٥) الناس » .

---

(١) خاص الخاص للثعالبى ٧٨ .

(٢) سر الفصاحة ٩٦ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١ .

(٤) انظر ترجمة مسلم آخر الديوان .

(٥) معاهد التنصيص ٣٦٠ .

رفع المسيهم

ولكنَّ عبد الله بن المعتز ، وهو شاعر وناقد ، قال حين عرض للبديع : «لِيُعْلَم أن بشارًا ومسلماً وأبانواس ومن تقيَّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن . ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم»(١). وأخذ الآمدى برأى ابن المعتز فقال :

«سلك أبو تمام سبيل مسلم واحتذى حذوه ، وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف والسَّنن المألوف . وعلى أن مسلماً أيضاً غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو أول فيه ، ولكنَّه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثر فى شعره منها ، وهى فى كتاب الله عز وجلّ موجودة فتبع مسلم بن الوليد هذه الأنواع واعتدَّها ، ووشح شعره بها ووضعها فى موضعها . . . ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن حتى قيل فيه إنه أول من أفسد الشعر»(٢) .

هذا ما عرض له النقاد فى دراسة شعر مسلم ، أخذ عليه بعضهم أنه أفسد الشعر بإدخال البديع ، ونفى بعضهم هذه التهمة عنه فبرأه من اختراع البديع والإيغال فيه وإفساد الشعر بالصناعة اللفظية . وهؤلاء أقرب الناس إلى عصر الشاعر وأعرف منا بما كان فى الشعر القديم والقرآن الكريم من صناعة لفظية قبل مسلم ابن الوليد تحلو للسمع وتطرب الأديب وتبلغ من البيان منزلة رفيعة . فإذا كان شاعرنا قد حذا حذو الشعر القديم والقرآن فتعلَّق بهما وأخذ بطريقتهما ، وهما ينبوعان صافيان يستقى منهما كل صاد ويردهما كلُّ شاد ، ويعبّ منهما كل من أراد أن يكون شيئاً مذكورًا ، فقد أحسن حين أراد أن يبلغ مرتبة الفحولة والجزالة والبلاغة ، ولكنه فيما رأى بعض النقاد أسرف وغالى وبالغ فخرج عن الطبع إلى التكلف . وفشل فى التقليد كما فشل غيره فى تقليده فأسرف كذلك حتى أصبح الشعر ألاعيب لفظية يعبث بها شعراء العصور المتأخرة ، وهنا كان الفساد ، ومنشؤه فى ظنّهم مسلم بن الوليد .

(١) كتاب البديع لعبد الله بن المعتز ، طبعة لندن ، ص ١ .

(٢) الموازنة ، ط . ١٢٨٧ هـ ، ص ٦ .

ولكن هذا العيب نظر إليه بعض المتصفين كضريبة الكمال وشارة الجمال والكلف فى البدر ، لم يخرج بمسلم عن طبقة الفحول . لهذا روت كتب الأدب من شعره على مرّ العصور ، على أنه أنموذج رفيع ، ومثل بديع ، فهو من أطايب الشعر ومن لطائف البلاغة ، ويكفى أن ننظر فى الفهارس لنعرف كم روى الأدباء من محاسنه لتكون طريقاً إلى الشعر الفصيح ومثالا للبيان الصحيح .

فلا علينا أن وجدنا عند صريع الغوانى الشاعر الكبير الفحل الذى جمع فى برديه عيون الكلام ومختار القول ، فكان ديوانه قلادة الدواوين ، وكان سعينا إلى جمعه وتفسيره وتحقيقه مرضاة للقدماء والمحدثين ، وكان عملنا لنشره وطبعه خدمة للمعاصرين من المتأدبين لعل فيهم من يستقى منه ويشرب من بيانه ، فهو صاف كالبحر ، عذب كالنهر ، وهو متين شديد الأسر .

رفع عبد الرحمن الهاشمي

الفصل الثالث

ديوان الشاعر

خبر الديوان – طبعة المستشرق – الديوان فى الشرق –

مخطوطة الديوان – شرح الديوان – طبعتنا للديوان

خبر الديوان :

دخل الشعر العربى فى القرن الثانى ميادين جديدة فتقلب فى ألوان وفنون وأغراض شتى لم يكن يعرفها من قبل ، لأن الحياة الاجتماعية تطورت ، والثقافات ازدادت ، فكثر القول وتنوع ، وأصبحت مادة الشعر ، غنية واسعة ، واشتركت عناصر كثيرة فى تشجيعه والاستزادة منه ، لذلك راج وانتشر ، فتضخمت دواوين الشعراء لذلك العصر ، حتى بلغ ديوان بشار فيما قالوا ثلاثين ألف بيت من الشعر نحو ألف ورقة ، وبلغ ديوان أبى العتاهية نيفاً وثلاثين جزءاً ، وكان ديوان أبى نواس فى ثلاثين ألف بيت[1] فيما نقلوا ، أى نحو ألف ورقة . وأما معاصرهم مسلم بن الوليد فكان ديوانه نحو ستة آلاف بيت .

ذكر ابن النديم[2] أن أبا بكر الصولى (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ) عمل ديوانه على الحروف فى مئتى ورقة . وأضاف أن رجلاً غير الصولى عمل للديوان كذلك . ولكن كتاب الفهرست فى هذا الموقع أصابه بياض فلم يجئ اسم الرجل الذى عمل للديوان . فلعله أحد الخالديين الأخوين[3] وهما فيما جاء عنهما قد عملا لديوان

---

(١) ، (٢) كتاب الفهرست (لابن النديم المتوفى ٣٨٥ هـ) ، ط . مصطفى محمد ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٣) انظر المقدمة التى كتبناها فى صدر مؤلفهما عن التحف والهدايا ، وطبعته دار المعارف بمصر ، ص ٢٢ وقد توفى أحدهما سنة ٣٨٠ هـ والثانى سنة ٣٩٠ هـ تقريباً .

رفع
المسيهم

غيره كالبحترى وبشار وابن الرومى وابن المعتز ، وعملهما كان اختيارًا لشعر الشاعر ، وقد وصل إلينا من ذلك شاهد واحد هو بعض اختيارهما لشعر بشار بن برد . بل لعل ابن النديم أشار إلى عمل هذا الشارح المغربى الطَّبيخى المتوّفى سنة ٣٥٢ هـ ، الذى سنتحدّث عنه بعد قليل .

أما أبو بكر الصولى فقد عرفنا يده على دواوين العربية وأخبار الشعراء ، فقد ترك لنا فيما سلم من كتبه كتاب الأوراق وديوان أبى نواس[1] ، وهما بين أيدينا نستطيع أن نحكم بهما على ذوق الصولى ودقته وسعة علمه ، وأن نقيس على ذلك ما كان منه لديوان مسلم بن الوليد .

وقد عُنى بشعر الرجل كثير من العلماء والأدباء ، بدأ ذلك فى حياة مسلم بن الوليد أو بعد قليل من وفاته . فقد أورد أبو تمام (المتوفى سنة ٢٢٨هـ) أشعارًا له فى الحماسة . ونقل الجاحظ فى البيان والتبيين والحيوان شيئاً من شعره ، وفعل مثل ذلك ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، والمبرد وابن المعتز فى المشرق ، وروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد والقالى فى الأندلس بعضاً من أبياته ، ولكنهم جميعاً لم يعرضوا لديوانه ولم يتحدّثوا عن وجوده أو فقده .

ولكن أبا الفرج الأصبهانى ، توسّع فى ترجمته وأشعاره وأخباره ، فى النصف الأول من القرن الرابع ، وذكر فى كتاب الأغانى الصوت الذى غنته « عريب » لمسلم بن الوليد ثم أتبع ذلك بقصص متناقضة حيناً متفقة حيناً ، لا ترتيب فيها ولا تقويم ، تملأ صفحات عدّة نقل فيها عن ثقات العلماء والرواة . ثم نقل عن الحسين بن أبى السرى أن راوية مسلم بن الوليد جاء إليه بعد أن ثاب ليعرض عليه شعره فتغافله مسلم ، ثم أخذ منه الدفتر الذى فى يده فقذف به فى البحر ، فلهذا

---

(١) انظر كشف الظنون ١ / ٧٧٤ ، والمخطوطة فى إستانبول . واقرأ أخبار أبى تمام للصولى .

قلّ شعره ، فليس فى أيدى الناس منه إلّا ما كان بالعراق وما كان فى أيدى الممدوحين من مدائحه .

وهذا الخبر عن ديوان مسلم كالخبر عن غيره من دواوين معاصريه . فقد قال ابن النديم عن ديوان بشار : «لم يجتمع شعره لأحد ولا احتوى عليه ديوان وقد رأيت منه ألف ورقة ، منقطع وقد اختار شعره جماعة[1] » . ومع ذلك ضاع شعر بشار إلّا ما سلم فى المغرب على يدى ابن عاشور .

والراوية الذى يذكره صاحب الأغانى ، جاء خبره فى كتب الأدب . أنه كان ينشد الشعر باسم مسلم بن الوليد ، يوجهه إلى الأمراء لعلّه يعود بالعطية والهدية وقد جاءنا أنه وجهه إلى المهلبى فى حكاية يطول ذكرها ثم عاد بمئة ألف درهم . وعرفنا كذلك أنّ الشاعر أنشد بالعراق مدائح كثيرة فى الأمراء والخلفاء سلم لنا بعضها وضاع بعض . والعجيب أن الذى ضاع وفقد ما كان فى الفضل بن سهل . فقد قال فيه مسلم شعرًا عرفنا أبياتاً منه فى المديح ، وذكرنا أن بيتاً منها يشهد للفضل ابن سهل بأنه أقام خلافة المأمون وأزال خلافة الأمين ، وأن هذا عمل جليل ؛ كان ذلك قبل رحيله إلى جرجان ، فقد ولاه الفضل فيها .

وقد عرفنا أن الفضل مات سنة ٢٠٢ هـ ، وذاع فى الناس أن المأمون دبّر لقتله[2] ، لأنه كان يحيي تقاليد المجوس وأمجاد الفرس ويستأثر بالحكم . فلما بلغ الشاعر مقتله فزع وحزن ، ورثاه[3] ، ولكن هذا الرثاء ضاع فيما ضاع من شعره . فهل نفهم من ذلك أن الشاعر أتلف من الديوان ما كان فى الفضل بن سهل خوفاً على نفسه ، فرمى به فى نهر جرحان أم نرى فى ذلك حجة للنقاد والرواة حين بحثوا عن شعر مسلم بعد سفره إلى جرجان فلم يقعوا على شىء فقالوا إنه زهد

(١) الفهرست ٢٢٧ ومقدمة ديوان بشار طبعة لجنة التأليف .

(٢) قيل إن قوماً وثبوا بالفضل بن سهل فقتلوه فى الحمام ، وكان عمره ستين سنة ، انظر الكامل لابن الأثير ١٩٢/٥ .

(٣) شهد ابن خلكان لهذا الرثاء فقال فى وفيات الأعيان ٤١٤١/ : « ورثاه بن مسلم الوليد » .

ونسك وتاب . وما أمر هذا النسك والزهد ؟ أهو العزوف عن الغزل وما إليه . ونحن نملك كثيراً منه كان حقه أن يتلف ويزول . أم هو الخوف من الموت والسلطان قد عقل لسانه فسكت وزهد . أم أن المنصب الذى كان فيه جعله أرفع من أن يدفعه إلى درك الشاعرية وكانت مهنة السائل المحتاج آنذاك .

ومهما يكن من أمر ، فقد سلم من الغزل والمديح ، والوصف وبعض الهجاء ، ما يكفى لتصوير الشاعر ودراسته ، وضاع ما كان فى الفضل بن سهل خاصة — كما قلنا — فقالوا إن الديوان قد ضاع ولا سبيل إلى الحصول عليه فى المشرق .

* * *

طبعة المستشرق :

ذلك ما كان من أمر الديوان فى المشرق خلال عصور طويلة ، لم يتحدث عنه متحدث ولم يهتم بأمره باحث ، حتى سافرت منه نسخة مغربية إلى خزانة ليدن من أعمال هولندة ، واستقرت فيها وعكف على دراستها ونشرها المستشرق الهولندى المشهور ميخائيل ده خويه[1] ، فعلم الناس بعودة الديوان إلى رفوف القراء والخزائن . ذلك أن المستشرق أصدر هذه الطبعة فى فبراير ١٨٧٥ للميلاد ، والقرن التاسع عشر يميل نحو الغروب ، واللغة اللاتينية تجمع المستشرقين والمستعربين على صعيد واحد ، يرسلون فيها بحوثهم ، ويكتبون بها تعليقاتهم ، فكتب « ده خويه » مقدمة فى أربع صفحات باللاتينية ، أتبعها بسبعين صفحة فى تفسير الألفاظ اللغوية فى الديوان وشرحها باللاتينية كذلك . وطبع بالجانب الأيمن النسخة المخطوطة كلها ، من شعر وشرح ، وتعليقات ، وذيّلها بترجمة الشاعر ، نقلها من كتاب الأغانى ، مع لطائف أخباره وأشعاره رواها عن الكتب المتفرقة . فجاء الديوان فى ٢٢٥ صفحة ،

(١) المستشرق Michael JEAN de GOEJE (١٨٣٦ — ١٩٠٩) نشر كثيراً من الكتب النفيسة .

وكانت الترجمة والأخبار في ثمانين صفحة من القطع المتوسط. مع فهرس بسيط للأعلام . وبذلك كانت صفحات هذه الطبعة حوالى ثلاثمائة صفحة .

والإنصاف يقتضينا أن نُشيد بجهد هذا العالم ، فقد تنبه إلى هذه المخطوطة ، وعُنى بها أول من عُنى ، فطبعها كما رآها بعد أن قابل ما فيها على المصادر التى وقعت له وكانت فى جملتها لم تظهر على المطابع . أما هوامشه النقدية فى ذيل الصفحات فكانت قصيرة يسيرة باللاّتينية يصوّر فيها ما كانت عليه الأخطاء فى النسخة الخطية للدّيوان بعد أن صحح كثيراً منها .

ولقد لقيتْ هذه الطبعة من المستشرقين كل ترحيب ، فهشّوا لها وأشاروا إليها ، وكرّموا صاحبها ، وعلقوا عليها تعليقات فيها الإطراء والمدح . فكتب العالم نولدكه فى العام الذى صدر فيه الديوان . شهر حزيران (يونية) سنة ١٨٧٥ ، مقالة بالألمانية[١] تحدث فيها خلال عشر صفحات عن حسنات الديوان والمآخذ عليه .

وفى سنة ١٨٩٩ . كتب المستشرق «باربيه ده مينار» مقالة بالفرنسية[٢] عن هذه الطبعة ، حيّا فيها الناشر شاكراً هذا الجهد الطيّب ، مثنياً على عمله الفذّ الذى صنعه عن نسخة وحيدة فى العالم . وذكر أنّ الشعر مكمل للتاريخ ومساعد على توضيحه ، وفيه ما ليس فى التاريخ .

وفى سنة ١٩٣٨ ، نشر المستشرق «ردشر» بالألمانية[٣] كتاباً فى مسلم بن الوليد ، صدر فى ١٦٣ صفحة ، ذكر فيه ما للناشر من يد فى التعليقات وما وقع عليه من أخطاء ، ونواقص. وأضاف إلى مصادره كتباً أخرى لم تقع له . ثم رسم

(١) Uber gottingische gelehrte Anzeigen, 9 Juin 1875 (pp. 705-715), von Noldeke.

(٢) Un poete arabe du IXsiècle Moslim, Paris 1899, 21 pages (Actes du X congrès des Orientalistes III, 1-21) par BARBIER DE MEYNARD.

(٣) Beitrage Zur arâbischen pœsie, der Diwan des Muslim B. El-Welid, Stuttgart 1938, 163, Seiten.

الخطوط الكبرى لحياة مسلم بن الوليد ، وترجم قصائد الديوان إلى الألمانية ، وعلق عليها تعليقات هامة .

وفى سنة ١٩٤٢ ، كتب المستشرق كارل بروكلمن فى كتابه تاريخ الأدب العربى[1] ، بالألمانية دراسة مفصلة بعض الشىء عن الشاعر مسلم بن الوليد والكتب التى ذكرته . وبذلك أضاف إلى ما كتبه عنه سنة ١٩٠٢ ، مصادر قيمة فمحا تقصيره وتخلُّفه فى هذا الميدان .

* * *

الديوان فى الشرق :

هذا أمر الديوان فى الغرب . أما فى الشرق ، فقد صدر ديوان مسلم بن الوليد فى الهند ، وطبع فى بومباى سنة ١٨٨٥ م/ ١٣٠٣ هـ ، بعد عشر سنوات من صدوره فى هولندة . ولكنَّ الناشر السيد ميرزا على محمد الحسينى ، نقل طبعة المستشرق كما جاءت . وحذف المقدمة والفهارس والتعليقات لأنها باللاتينية ، وطبعها على الحجر مشكولة . فجاءت الطبعة فى ١٥٢ صفحة من القطع الصغير . وأثبت كل ما أثبته المستشرق من ترجمة مسلم وأخباره ، حتى بلغت صفحات هذه النشرة ٢١١ صفحة.

ولكن الشّعر اختلط بالنثر على سطر واحد من غير تمييز أو ترتيب ، ممّا يتعب فى المطالعة والقراءة على رداءة الكتابة ، وختم عمله بقوله : «وكان تصحيحه أجود من تصحيح النسخة المطبوعة فى ليدن ، وبتصفّحه كلّه يظهر لك الفرق» . وفى كلامه هذا دعوى تتجاوز ما قام به من تصحيح بعض الأخطاء الظاهرة المطبعية ، وفيما بقى كان أميناً فى النقل ، ترك محلات البياض والنقط كما وردت فى نشرة المستشرق .

---

(١) تاريخ الأدب ، الأصل ١/٧٦ ، والذيل ١/١١٨ .

رفع المستهم

وفى سنة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧م ، صدر الديوان ــ فى مصر بمطبعة مدرسة والدة عباس الأَول فى القاهرة . وكتب على الغلاف : «طُبع على نفقة فئة من أنصار الأَدب مصحّحاً ومذيلاً » . ولكن هذه الطبعة مرتبة على حروف الهجاء ، ظهرت فى ٩٧ صفحة من القطع نفسه على ورق أَبيض . وقد أَغفل أَنصار الأَدب أَحياناً ذكر المقدمات القصيرة التى تسبق القصائد فى الطبعة السابقة ، ولكنهم وقعوا فيما وقعت فيه تلك الطبعة تماماً من غير أَن يعلقوا أَو يضيفوا . وحذفوا ذكر الطبعة الهندية التى نقلوا عنها فيما نرى . وأَغفلوا شروحها وترجمة الشاعر وأَخباره ، ولم يذكروا أَسماءهم ، وسنصف الطبعة التى جاءت بعدهم كصورة لطبعتهم . ينطبق عليها ما يقال فى هذه النشرة .

وصدر الديوان فى القاهرة (كصورة للطبعة المصرية السابقة)[1] على ورق أَصفر ، فى حجم الطبعة الهندية ، فى ٧٨ صفحة. ولكنه رُتب على حروف الهجاء خلاف ترتيب النسخة الخطية القديمة والنشرتين الأُولَيين . وصدّر بترجمة قصيرة جدًّا ملخصة من كتاب الأَغانى بتصرف فى صفحتين . وذيل بشروح لغوية للمفردات فى كلمات مقتضبة جدًّا ، كأَنها مرادفات ، لا تتجاوز نصف السطر فى أَطولها ، أَخذت عن الشرح القديم غالباً . وقد ذكر على الورقة الأُولى من هذه الطبعة : «نقحه وصحّحه وعلّق عليه الأُستاذ الجليل حسن أَفندى أَحمد البنّا المدرس بالمدارس الأَميرية » . وذكر على الورقة الأَخيرة منه : «تم طبع ديوان صريع الغوانى وقد قام بتصحيح بعض أصوله قبل تقديمه للطبع الأُستاذ الجليل حسن أفندى أحمد البنّا المدرس بالمدارس الأَميرية ، وقد حالت أَشغاله دون تصحيحه أَثناء الطبع فصحح منه الملازم الأُولى والثانية والرابعة الأُستاذ الجليل الحسيب النسيب السيد محمد كمال الدين الأَدهمى الحسينى ، والثالثة والخامسة

(١) طبع بنفقة محمد أحمد رمضان المدنى ، صاحب مكتبة المعاهد العلمية بالصنادقية بمصر (؟) .

صحّحها الأستاذ السيد محمد الحكيم المحرر بجريدة البلاغ أثناء الطبع على النسخة المطبوعة فى الهند فى مدينة بمبىٔ سنة ١٣٠٣ . وهى أصح من النسخة المطبوعة فى لندن » (كذا) .

فهذه النسخة استخلصها صاحبها من طبعة الهند التى أخذت عن طبعة ليدن لا طبعة لندن .

على هذا صدر الديوان فى مصر مرتين يتيماً مفردًا ، وليس عليه شرحه القديم وليست له فهارسه . غير مشكول أو مضبوط ، لأن الطابع اختار أسهل السبل فى إخراجه ، فحذف ما لم يفهمه من الأبيات الغامضة التى جاءت مبتورة فى طبعة المستشرق ، مع أن الطبعة الهندية أثبتتها كما هى . فجاءت الطبعة المصرية للديوان مختلفة عن طبعة الهند ونشرة المستشرق ، لا تشبه المخطوطة القديمة فى شىء إلّا فى رواية الأبيات فحسب .

وهكذا حُرم العالم العربى من طبعة متقنة مدققة محقّقة تظهر فى بلاده ، تحوى شرح الشارح القديم وتعليقاته على الأبيات والأحداث ، مما ييسّر الأمر فى ديوان جزل كديوان مسلم . وحرم كذلك من ترجمة الأغانى لصريع الغوانى ؛ وقد نشرها المستشرق عن مخطوطات أوربة المختلفة ، وقابل بينها وجمعها وصوّب نصّها .

فإذا عاج القارئ العربى يفتش عن هذه الترجمة فى كتاب الأغانى المطبوع فى مصر عاد بالخيبة لأن هذه الطبعة تنقص ترجمة مسلم فيما تنقص من فصول وتراجم . ولعل القارئ يظن أن أبا الفرج الأصبهانى رمى بها فى البحر عملاً برأى الشاعر ، ولكن هذا الظن يخيب حين يعلم أنها فى مخطوطات القاهرة بدار الكتب المصرية كاملة صحيحة موفورة ، تحتاج إلى من ينظر فيها ويضيفها

رفع المسبهم

إلى طبعة الأغانى الجديدة التى شاخت فى شرخ الشباب ، تنتظر الخطّاب منذ ثلاثين عاماً .

أجل ، حرم العالم العربى من طبعة محققة فى بلاده يزيّنها الشرح القديم ، وتزخرفها التعليقات العربية ، وتتصدرها كلمة فى الرجل وشعره والشّارح وعمله ، وتختمها الفهارس المفصّلة باللّغة العربية المجيدة . وليس الأمر عسيراً ، لأن المخطوطة قريبة المتناول ما تزال فى هولندة . ينشرها العربى كما نشرها الغربىّ ، فيوفر لها فى النصف الثانى من القرن العشرين ما وفّر المستشرق لها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حين يأخذ بالأسباب نفسها من عناية وحب واحترام للشاعر وديوانه .

* * *

مخطوطة الديوان :

وهذه المخطوطة فذة وحيدة فى العالم ، بحث المستشرق عن ثانية لها فأخفق . وسألتُ الخزائن الخاصة والعامة مما زرتُ أو عرفتُ فأعيانى البحث ، وعدتُ لأقول مع المستشرق العالم إنها مفردة يتيمة سلمت على الزمان فهى نادرة قيّمة ، وهى وحدها أعادت إلى الأدباء شاعرهم القديم العظيم .

ولسنا ندرى من خبر هذه المخطوطة إلّا أنها فى جملة المخطوطات التى حملها وارنر Warner (١٦٠٨ – ١٦٦٥ م) فى النصف الأول من القرن السابع عشر للميلاد ، أى فى القرن الحادى عشر للهجرة . بعد ثمانية قرون تقريباً من وفاة الشاعر ؛ فأودعها خزانة الجامعة بليدن . واستقرتْ فيها منذ ذلك الحين تحت رقم ٥٩٥ ، مع طائفة من الكتب الخطية النفيسة الفريدة اليتيمة كذلك ، حتى قيل إنه اقتنى لهذه الخزانة حوالى ألف نسخة ثمينة[1] . ولعله تصيّدها خلال رحلته فى المغرب الأقصى

(١) انظر كتاب "المستشرقون" لنجيب العقيقى ، مصر ، ص ١٣٧ .

رفع المسبحهم

العربى ، وساقها فى الغنائم والنفائس ، ولم يخلّف لنا ده خويه فى وصفها وحكايتها ما يغرينا على القول والاستفادة من تاريخها اللّهم إلّا عدة سطور فى فهرس الخزانة ، وخاصة فى الطبعة الثانية(١) التى صدرت سنة ١٨٨٨ للميلاد ، إذ أشار ، وهو مؤلّف الفهرس ، إلى نشرته للديوان ، فلم يُسهب فى رسم النسخة .

والنسخة — كما رأيناها فى ليدن — جميلة قديمة ليس عليها تاريخ لكتابتها ، ولكنّ ورقها يدل على أنها كتبت فى القرن الخامس أو السادس للهجرة ، بخطّ مغربى قديم ، وهى فى ١٢٧ ورقة بحجم الثُّمن ، فى كل صفحة منها ١٧ سطرًا . ولم يظهر فى النسخة اسم كاتبها كذلك أو بلده ، ولكننا رأينا جميل عنايته بها ورسمه لأبيات الديوان فى خطّ كبير واضح جلىّ مشكول ، مزيّن بالنقط الجانبية فى كثير من صفحاته ، يختتم عبارته بحروف وأشكال تزيينية(٢). وأما الشّرح فقد كتبه بخط أدق وجعله بعيدًا عن الحواشى ليتبين الشعر من النثر ، ولكنه ضبطه بالحركات كذلك . زيادة فى الرعاية والعناية . ولم يُضف من كلامه شيئاً يدل على تديّنه أو تعففه عن الشعر المروى ، على عادة بعض النسّاخ ، ولم يترحّم ولم يصلّ عند ذكر بعض الأسماء المشهورة فى التاريخ لينير سبيلنا إلى طائفته أو صنعته ولكننا وقعنا له على أخطاء فى الإملاء والنحو تدل على ضعفه ورقته فيهما .

وعلى الورقة الأولى من المخطوطة (١و) بخط قديم مغربى : «ديوان مسلم بن الوليد الشهير بصريع الغوانى رحمهُ الله » . وفى ظهر هذه الورقة الأولى (١ ظ.) يبدأ النسخة «بسم الله الرحمن الرحيم . عونك يارب » . قال صريع الغوانى واسمه مسلم ابن الوليد الأنصارى يمدح يزيد بن مزيد الشيبانى : «أجررت حبل ..» . وختام

---

(١) Catalogus Codicum Arabicorum, par M.J. de gœje et Th. Houtsma, Leyde 1888; Tome, I, 371.

(٢) لن نسهب فى بيان كتابة الناسخ ورسمه للحروف المغربية من نقط الفاء والقاف فى أسفلهما أو رسمه لغيرهما ، فاكتفينا بنشر صورة نموذجية للمخطوطة ختام هذه المقدمة التى عقدناها لذلك .

رفع المستهم

هذه المخطوطة بالورقة الأخيرة (١٢٧ و) : «هنا قد تمَّ جميع شعر صريع الغوانى رواية أبي العباس وليد بن عيسى الطَّبيخي» .

وقد أصابت هذه المخطوطة رطوبة وأَرضة أكلت سطورًا فى منتصف الصفحات فثقبتها وذهبت بكلمات كثيرة استطعنا ردَّ أكثرها إلى مواضعها ، ولكننا فشلنا فى إعادتها كاملةً كما كانت حين النسخ فتركنا بياضاً . وسقطت منها أوراق ظهر محلّ سقوطها فى بعض الأماكن[1] ، وخفى موضعه فى أماكن أخرى . وهى خسارة لا شك فيها . كما أننا وقعنا فى الورقة (٤٩و) من هذه النسخة على جملة : «تمّ الجزء الثانى» ؛ فحرنا فى تفسير ذلك . وافترضنا أن هذا الجزء الثانى يبدأ بالورقة الأولى حتى الورقة الخمسين . والثالث يكون من الورقة (٥٠ – ١٢٧) أى نيّف وخمسين ورقة فيتساوى الجزءان الثانى والثالث تقريباً . فتساءلنا عن الجزء الأول أين ذهبت به العوادى . لعله فى خمسين ورقة كذلك . فإذا صح هذا فقد ضاع ثلث الديوان رواية الطبيخي .

ودفعنا إلى هذا الافتراض أن النسخ الخطية لدواوين الشعر وغيرها تبدأ عادة بذكر الأسباب التى حدت إلى جمعها وتفضيلها على غيرها . أو تقديمها إلى سدّة أمير أو ملك أو وجيه . يتقرب بها جامعها بين يديه . وقد رأينا ذلك فى كثير من المخطوطات . فلم نقع عليها هنا وإنما بدأت النسخة كما قلنا بالتسمية وإدراج قول الشاعر ورواية قصائده واحدة بعد أخرى . يبدأ بالطوال ثم يُنهى الديوان بالقصار ، وتلك خلّة معروفة عند الرواة والجامعين يقلّدون بها ترتيب القرآن الكريم .

وزاد فى هذا كله أن الديوان رواية عالم أديب ، وفيه شرحه على الأبيات يطول حيناً حتى يمتد إلى بعض الصفحة وخاصة فى مفتتح الديوان . ويقصر فى ختامه حتى يكتفى بذكر المرادف والشرح المقتضب . فلم نقرأ فى فاتحة النسخة كلمة الشارح وسبب روايته للديوان ، وتعليل قيامه بهذا الشرح ورعايته لهذا الشعر ،

(١) مثلا نقص الكلام فوقع الخرم بعد الورقة ٤٥ ظ ولم نستطع تقدير ما نقص .

وحبّه للشاعر وإعجابه به ، وتقديمه لمن طلب منه ذلك أو ردّه على من عاب شعر صريع الغوانى ، أو منافسته لمن عمل له قبله أو رواه .

وأخيرًا ، أحصينا شعرالديوان فى هذه المخطوطة فوجدنا أنه يبلغ قرابة (١٨٠٠ بيت من الشعر) . فإذا أخذنا بالافتراض السابق ، وذهبنا إلى أن النسخة نفسها أضاعت ثلث الديوان . فكان الأول فى خمسين ورقة وكان الثانى والثالث فى ضعفيها ، بلغ الشعر فى هذه المخطوطة حوالى ثلاثة آلاف بيت . وابن النديم يقول فيما ذكرنا إن الديوان بلغ لعصره مئتى ورقة أى ستة آلاف بيت تقريباً ، رأينا أن هذه النسخة من رواية الطّبيخى تحوى نصف الشعر الذى كان بالمشرق ، إذا ما وصلتنا كاملة .

فهذه المخطوطة فى أغلب الظن تحوى مختارات من شعر مسلم بن الوليد وتروى عيون شعره . وذلك لأننا استعرضنا المصادر والنقول والكتب والأخبار ، مما رُوى عن مسلم بن الوليد أو نُسب إليه فرأينا شعرًا كثيرًا لم يقع فى هذه المخطوطة ، وسنبين فيما يلى ملاحظاتنا على ذلك :

١ – قرأنا فى الأغانى أنّ الشاعر مسلم بن الوليد حدّث عن نفسه فقال : «وجه إلىّ ذو الرياستين فحملت إليه فقال أنشدنى قولك :

بالغمر من زَينبَ أطلالُ ... مرّت بها بعدك أحوالُ

فأنشدتُه إيّاها حتى انتهيتُ إلى قولى :

وقائل ليست له همةٌ ... . (الأبيـــات) »

فإذا نظرنا فى هذه المخطوطة لم نقع على المطلع المذكور ، ولم نقع بعده على أبيات تليه ، وإنما تبدأ المقطعة بقوله : «وقائل ليست له همة» . . . وهو لا يشير إلى أنها فى الفضل بن سهل ذى الرياستين : فأين ضاعت الأبيات التى ذكر أولها

صاحب الأغانى . ومن ذا الذى يطمئننا إلى أن ما بقى منها هو كل ما كان فيها لديوان الشاعر الأصيل ؟

٢ – ذكر المرزبانى فى كتابه[١] أن مسلم بن الوليد جمع يزيد على أيازيد وروى عجز البيت : «رأس المهلّب أو بأس الأيازيد» . وذكر هذه القصيدة . فلمّا عُدنا إليها فى الديوان (تحت رقم ٢٠) لم نجد هذا العجز فعلمنا أن البيت قد ضاع فى جملة أبيات لعلّها ضاعت .

٣ – روى كثير من الأدباء القدماء كابن قتيبة والتنوخى والسرىّ والرفّاء وابن المعتز والمرزبانى خمسة أبيات من الشعر لمسلم بن الوليد فى جملة قصيدته (رقم ٤٥) تقع فى ترتيبها بعد البيت الثانى عشر ، ونظرنا فى المخطوطة التى وصلتنا فلم نجدها كذلك .

٤ – ذكر ابن خلكان أن مسلم بن الوليد قال فى الفضل بن سهل من جملة قصيدة : أقمت خلافة . . ورجعنا إلى الديوان فما رأينا للقصيدة أو للبيت نفسه أثرًا أو ذكرًا .

٥ – ذكر ابن خلكان بيتاً لمسلم بن الوليد استعمله ابن التلميذ تضميناً وروى بعده لمسلم فى يحيى بن خالد البرمكى بيتين من الشعر ، وهذه الأبيات مفقودة كذلك فى هذه المخطوطة .

ويطول بنا القول إذا ما ذهبنا ندلّل على نقص هذه المخطوطة ، وأنها فى مختار الشعر لصريع الغوانى . لأننا رأينا مطالع وأبياتاً ذكرتها مصادر قديمة لا يبلغ إليها الشك وهى لا تقع فى الديوان ، ذلك عدا قصائد ومقطعات فقدت من النسخة بكاملها .

وهذا النقص فى النسخة يدعو إلى الأسف والأسى ، ولكنه لا ينسينا الفرح والسرور والغبطة بوصول النسخة إلينا ، فقد حوت شطرًا من الديوان لولاه لضللنا

(١) الموشح ص ٢٨٩ .

رفع المسترهم

السبيل إلى تذوق الشاعر وفهمه ودراسته . فإن كان هذا غيضاً فهو يدل على فيض كبير وخير وفير ، ولكنه ينبوع عظيم ومصدر كريم حفظ لنا هذا الشعر على الزمان ، بعد أن ظنّ المشارقة أن الديوان قد غاص فى لجج النهر ، وبقى بعضه فى أيدى المملوجين ببغداد ، ولعلّه هذا هو الذى بقى ، وهو كنز ثمين .

* * *

شرح الديوان :

هذا من حيث الشعر الذى جاءنا فى المخطوطة ، أما الشرح فأمره يستحق النظر والاهتمام ، لأن النسخة كما قلنا لا تحوى الشعر وحده وإنما تزينت بشرح عالم كبير سنبسط خطره ونقف عنده غير قليل . فقد جاء فى آخر المخطوطة اسم هذا العالم ، وقرأه المستشرق فظن أنه « الطّنجى »(١) نسبة إلى طنجة . وسأل عنه فأعياه أن يجد له ترجمة ، فلم يعرف حياته وموقعه من عصره وأمته وبلده . وقد بحثنا عنه فى الكتب التى تترجم للأندلسيين أو المغاربة ، فاهتدينا إليه فى كتاب « طبقات النحويين واللّغويين »(٢) لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى المتوفّى سنة ٣٧٩هـ ، وكان معاصرًا للطبيخى يعرف أخباره معرفة كافية ، فترجم له فى الطبقة السادسة من علماء الأندلس قال « الطبيخى » :

« هو أبو العباس وليد بن عيسى بن حارث بن سالم بن موسى . ذكر محمد ابنه أن وليدًا كان يقول إنه من ولد رشيد مولى الوليد بن عبد الملك ، وكان ذا علم باللّغة والشعر . وكان له حظ من علم العربية . وكان بصيرًا بمعانى الشعر ، حسن التلقين لمن تبلّد فهمه عنها ، وكان يقرّ بها ويضرب الأمثال فيها حتى عرف بذلك

(١) تبعه الدارسون والناشرون فى تسميته بالطنجى ، وفى الورقة الأولى من المخطوط تعليق بخط أحد المستشرقين أنه الطبيخى ومع ذلك لم يسمع وراءه الباحثون .

(٢) نسخة استانبول ، نور عثمانية ، بالورقة ٢١١ ، ثم فى طبعة الكتاب الذى حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٥٤ ، ص ٣١٥ ، ٣٢٩ .

رفع المسهم

وتنافسه الملوك ، فلم يؤدب إلاَّ عند الجلة ، وكان خيرًا ديناً . وله شروح فى شعر حبيب وصريع ، قريبة مبسوطة . وتُوفى فى شوّال سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة » .

ووجدنا ترجمته كذلك عند أبى الوليد الفرضى فى كتابه « تاريخ علماء الأندلس »[١] . وذكر نسبه كما جاء عند الزبيدى ، لكنَّ الناشر صحف اسمه فجعله « الطينجى » . وشهد له الفرضى بحسن الاستنباط لمعانى الشعر والنظر فيه ، وأورد من كتبه شرح شعر أبى تمام الطائى وشعر مسلم بن الوليد ، وأضاف : « فأخذ الناس عنه هذه المشروحات » .

ونحن بسطنا ترجمة الرجل لنوازن بين ما جاء فى المخطوطة من اسم الراوية الشارح واسمه فى المصادر ، فرأينا أن الاسم هو نفسه فى كنيته ولقبه واسمه واسم أبيه ، وأنه جاء فى ترجمته شرحه لديوان مسلم ، فعرفنا أن هذا الشرح من عمله الذى نوه به المؤرخون ، غير أننا لم نقرأ عندهم أنه روى الديوان . ولسنا ندرى كيف رواه وعلى من اعتمد فى روايته . فهل وقعت له رواية الصولى وهما متعاصران فى القرن الرابع ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب وبين وفاتيهما خمسة عشر عاماً فحسب ، فكيف انتقلت النسخة[٢] ؟ أم أنها رواية مختلفة لعلَّها هى التى أشار إليها ابن النديم فى كتابه الفهرست وهو معاصر له كذلك . بقوله : « ورجل كان فى زماننا » وهو يجهل اسمه أو طمست معالمه نسخة الفهرست .

تلك افتراضات حول انتقال الرواية من بغداد إلى الأندلس ، ولن ننتهى إلى شىء من اليقين العلمى فى صددها لسكوت المصادر والأخبار عن انتقال الديوان إلى المغرب ، وسكوت الشارح نفسه عن هذا ، فقد قلنا إنَّ مقدمته ضاعت فأضاعت علينا كثيرًا .

---

(١) طبعة مدريد ١٨٩٢ ، ٢ / ٣١ .

(٢) قرأنا فى كتاب الفهرسة لابن خير ، ط . مدريد ١٨٩٣ ، ص ٤٠٨ ، كيف حمل أبو على القالى البغدادى كتباً وأخباراً إلى الأندلس ، وقد دخل قرطبة سنة ٣٣٠ هـ ، فلعله جلب فيما جلب ديوان مسلم ، فشرحه الطبيخى .

رفع عبد الرحمن الهجري

وإذا كنا لا نعرف شيئاً عن الرواية والجمع ، فنحن لا نعرف رأى الشارح فى ديوان الشاعر ، لأنه لم يستحسن ولم يستقبح ، وإنّما تلفّت إلى شىء واحد هو الشرح الأدبى واللّغوى والتاريخى والاجتماعى فحسب . وهو فى هذه المخطوطة متباين الطريقة ، فقد قلنا إنه أسهب فى النصف الأول من الديوان فشرح الأبيات وأوغل فى الشرح ، ولكنه حين جاوز هذا راح يختصر فيشرح المفردات مرة لبيت أو اثنين ثم يسكت عن كثير وكثير ، كأنه رأى أن الأبيات سهلة لا تحتاج إلى شرح أو أنه تعب من تفسير ما قد مرّ مثله فى القصائد السابقة . ثم أسرف فى الاختصار حتى بلغ إلى شرح المفردات باقتضاب وذلك بعد القصيدة (٢١) ، وبالغ فى الإسراف بعد ذلك ثم سكت فلم يشرح بل لعل الاختصار والإيجاز كان من عمل الناسخ .

وهذه الشروح كما بلغتنا فى هذه المخطوطة لطيفة رقيقة ، لا تقف عند الشرح اللغوى كما قلنا ، وإنما تتعداه إلى التاريخ الإسلامى فيتحدّث عن يوسف البرم الخارجى وابن طريف الخارجى وغيرهما كيزيد بن مَزيد وهارون الرشيد .

ولا شكّ فى أن الشارح اطّلع على نسخة أو أكثر من هذا الديوان أو من المصادر الكثيرة التى تَروى من شعره ، فقد أورد فى كثير من المواضع اختلاف الروايات فقال مثلاً : « ويروى : فما فى اللين من حرج » . . « و يروى : وقد أوفت على زلل » . . « ويروى : دَعَائم قد أوفت » . . . وهكذا.

ورأينا كذلك أنه وقف على كتب الأدب التى تتحدث عن مسلم بن الوليد ، فهو ينقل لنا رأى ابن قتيبة فى تسمية الشاعر بصريع الغوانى ورأى الخليل فى العنقاء ، ورأى غيرهما :فى كثير من المسائل التى تعترضه . وهو فيما يبدو أديب مطّلع على الأدب العربى اطلاعاً واسعاً ، ينقل من المصادر القديمة شعرًا يستشهد به فى شرح صريع لكثير من المعانى التى قالها ، ويستشهد بالقرآن الكريم وأمثال

رفع المسهم

العرب ، ويعرض رأيه الأدبي في وجوه الشعر التي يقترحها على مسلم ، فيرى له وجهاً من القول غير الذى جاء في الديوان ، وهذا يدل على ذوق وثقافة .

وهو فى هذا الشرح لا يقل عن علماء المغاربة فى شرح الدواوين القديمة ، ويستوى فى ذلك مع مواطنيه من الشراح كالبطليوسى والشنتمرى ، ممن أسدوا يدًا كبيرة إلى العربية فى الرواية والجمع والشرح . ولو طُبعت شروح الرجل وكتبه لاشتهر فينا كشهرته فى المغرب ؛ ولكن هذا أول كتاب يظهر له ويدلّ عليه . وهذه أول مرّة يتحدّث فيها متحدث عنه بعد أن صحّف المستشرق اسمه وبسط عليه بذلك ستار النّسيان .

وإنه فى شرحه كذلك لا يختلف عن علماء المشارقة فى شرح الدواوين ، بل إن شرحه إذا ترك غفلاً من نسبته إليه جاز أن ينسب إلى أحد المشارقة فى أسلوبه وطريقته . ولكن جاء فيه خلال الشرح عبارات تدل على أن الرجل عرف الأندلس وعيشها . فقال فى شرح أحد الأبيات : «أصيبُ مليلاً أى خبزًا مملولاً ، وهو المطبوخ فى الملّة . وذكر أبو حاتم أن الملّة الموضع الذى يطبخ فيه الخبز . وأهل الأندلس لا يعرفون الملّة إلاّ التى يُطبخ الخبز فى قوش منها مستعل من الأرض قد صار موسطها بين أرضها وسقفها » . والقوش جمع قوشة وهى الفرن أو التنور عند المغاربة ، وقد تلفظ بالكاف فيقال كوشة . ويفصّل دوزى فى معجمه[1] أمر هذا الفرن وطريقة إيقاده فى بعض البلاد كطرابلس الغرب ويستشهد بنصّ شارحنا ، ويرى أن أصل الكلمة لاتينى تسرب إلى الأندلس .

ويقول الشارح فى مكان آخر : «وهذا الجرى يقول له أهل البحر الدرشة ، وهو أن يحرف المركب على جنبه قليلاً ويجرى إلى الشرق بريح الشرق »[2] . والدرشة

---

(١) تكلة معاجم العرب لدوزى ، طبعة ليدن ١٩٢٧ : ٢/٤٩٩ .

(٢) هذا المصدر نفسه ١/٤٣٤ .

رفع المسيّهم

كلمة لا يعرفها المشارقة بهذا المعنى وهى خاصة فيما يرى دوزى كذلك بالبحارة فى أفريقية ، ويقول إنها مشتقة من اللفظة الفرنسية .

ونحن لا نحاول هنا أن ندرس مفردات أهل الأندلس والمغرب مما جاء على قلم الشارح . وإنما بسطنا القول فى مثلين اثنين ، لنبرهن على أن الشارح أندلسى أديب وقف على الأدب القديم وتمكن من لغة العرب ، واستقى مما حوله فى أرضه وإقليمه ، فكان شرحُه نافعاً قيماً ، نهض له فى جهد واضح وسعى طويل ، فوفر على قراء مسلم بن الوليد الشرح والتعليق ويسَّر لهم فهم الأبيات . فاستحق بذلك الثناء المستطاب ، وأضاف إلى يده فى الرواية والجمع شرحاً يفتح مغاليق المعانى ويفسر ما كان من الألفاظ الصعبة .

* * *

طبعتنا للديوان :

هذه هى المخطوطة النفيسة التى وقعت للمستشرق فَعُنى بها ، ونشرها . أردنا أن نُعيد النظر فيها على ثمانين عاماً انقضت لعمله توفّر لنا فيها مصادر طبعت وطرائق رسمت لم تكن لعهده . فأحببنا أن نسير سيرته فى الحرص والأمانة والدقة لعلّ طبعتنا تقف لطبعته إنْ لم تضف إليها أمرًا [1] ، فقد فعل الرجل لأمته وكتب بلغته ، ونحن نصنع هذا للأمة العربية ولغتها الخالدة ، لذلك كانت مهمتنا دقيقة عسيرة ، ولكن الحكمة تقول كم ترك الأول للآخر ، والفضل دائماً للمتقدم .

على هذا صورنا الديوان وحملنا معنا نسخته ، واتبعنا فى طريقة نشرها ما اتبعنا فى كتبنا التى نشرنا ، فلزمنا الأصل أمانة ووفاء ، وبيّنا مواقع الورقات من المخطوطة فى هوامش الصفحات ، ولكننا خالفنا المخطوطة والمستشرق فى أمر واحد ، ذلك أننا جعلنا الشعر فى أعلى الصفحة بالمتن وجعلنا الشرح منفصلاً

(١) لم نحاول دائماً أن نصور أخطاء طبعة المستشرق وتصويبنا لها إلا حين نشك فى توفيقنا ومقدرتنا .

عنه كذيل وتعليق ، وأنشأنا هامشاً صغيرًا تحت هذا الشرح فكأن الصفحة تحوى ثلاثة أمور . أولاً : شعر مسلم بن الوليد . ثانياً : شرح الطبيخى . ثالثاً : تعليقاتنا فى اختلاف الروايات وتصحيح الأبيات وإثبات مواقع الآيات والأحاديث والأمثال والشعر .

فعلنا كل ذلك سعياً وراء خدمة القارئ العربى الحديث نيسر له قراءة الديوان وشرحه ، لعلنا نحبّب إليه العكوف على مصادرنا القديمة : فإذا شاء قرأ الشعر متسلسلاً لا يعترض سبيله شارح قديم أو حديث . وإذا أراد أن يفهم الشعر عاج إلى الشارح القديم ، وإذا سعى إلى التثبت العلمى والنقد اللّفظى نظر مسرعاً فى الحواشى التى كتبناها .

وقد عُدنا إلى المصادر الأدبية والتاريخية ، مخطوطة ومطبوعة ، فنقلنا منها ما جاء من شعر الشاعر وأخباره ، على اختلاف العصور . وقابلنا بين رواية الديوان ورواية هذه المصادر ، فبسطنا وجوه الخلاف لأن أكثر مصادرنا مشرقية والشاعر مشرقى نريد أن نثبت روايتهم لشعره ، ونوازنها برواية الجامع الشارح الأندلسى .

ولا ننكر أننا وقعنا على خلاف كثير فى الرواية ، وفى زيادة الأبيات أشرنا إليه فى الحواشى . ولكننا بعد أن أثبتنا نقص الديوان بالبرهان ، وجدنا شعرًا كثيرًا رواه القدماء لمسلم بن الوليد – كما قلنا – ولكنه لم يرد فى نسخة هذا الديوان ، فجعلناه ذيلاً لما رواه الطبيخى ، وأثبتناه بعد رواية مخطوطته ، ورتبناه على القوافى كتكملة لشعره ، يرجع إليه الباحث المستزيد حين يُريد أن يشفى غليله من شعر الشاعر . ويستطيع القارئ أن يطمئن إلى أننا بحثنا ما وسعنا واستقرأنا ما أمكننا من كتب الأدب فلم نوفر الجهد والطاقة ، ولم نقف دون الصعاب ، لأن كتبنا لا تحوى كلها فهارس تُشير إلى موضع شعر مسلم بن الوليد منها . كما أننا لم نقطع جازمين بصحة الأبيات المنسوبة إلى الشاعر ، وإنما رويناها على عهدة القدماء ،

منذ عصره حتى القرن الثانى عشر للهجرة .

وأتبعنا تكملة شعره ، برواية جملة أخباره عن الكتب ، فنقلنا ترجمة الأغانى وغيرها كما فعل المستشرق ، وزدنا عليه عدداً من المصادر يبلغ ضعف ما وقع عليه الرجلُ قبلنا . ورتبناها بدورنا على السنين ووفيات الرواة ، وذلك ليعرف الدارس نظرة العصور الأدبية إلى شاعرنا ومبلغ وقوفها على أخباره وما كان يسير بين الأدباء من نوادر وحكايات نُقلت عن حياته وعصره مكررة حيناً ومختصرة مشوهة أحياناً .

وأتبعنا ذلك كله بفهارس مختلفة تذكرُ ما ورد من شعره فى كتب الأدب ومواقعها من الصفحات ، وترسم مواقع القصائد من الديوان ، وترتيبه على القوافى وغير ذلك ما يفعله الناشرون لعصرنا .

هذه هى طبعتنا للديوان ، أثبتنا المخطوطة قبل كل شىء بكاملها ، وألحقنا بها ذيل الديوان مما جمعنا من شعره ورسمنا بعدها أخبار الشاعر مما استقصيناه ، وجعلنا الفهارس مفاتيح ومسارد بين يدى المُراجع والمُطالع .

وقد حرصنا أشد الحرص على النظر فى ضبط الشعر وإكمال الشرح ، والرجوع إلى المعاجم حين يلوح الشك فى صحة هذا أو هذا ، ونسبنا أكثر الشعر الذى رواه الشارح إلى قائله ، وبيّنا موقعه من الطبعات الشرقية والغربية ولكن فى إيجاز واقتضاب لئلا نثقل الهوامش .

عملنا كل ذلك لنوفى الشاعر حقه فى القرن العشرين ، ونبرز الديوان فى حلّة من التحقيق تقف لحلّته فى الطبعات السابقة . وأما هذه المقدمة فقد كتبنا فيها ما عنَّ لنا من حياة الشاعر وديوانه ومخطوطته وطريقة طبعه لعلّها تكون بين يدى الطبعة دليلاً للدارس وصديقاً للشادى ، راجين أن يحالفنا التوفيق فيما رأينا من تفضيل الروايات وإحصاء المراجع ، فهو جهد المقل وسعى المجتهد يخطئْ ويصيب ، متمثلين بقول ياقوت الحموى : «فإنّا وإنْ أخطأنا فى مواضع يسيرة فقد أصبنا

فى مواطن كثيرة ، فما علمنا فيمن تقدَّمنا وأَمَّنا من الأئمة القدماء إلاَّ وقد نُظم فى سلك أهل الزَّلل وأُخذ عليه شىء من الخطل ، وهم هم . فكيف بنا مع قصورنا واقتصارنا وصرف جلّ زماننا فى نهمة الدنيا وطلب المعاش وتنميق الرياش . . »

فإذا كان هذا قول ياقوت وهو هو ، فكيف بنا وقد فصلت العصور ، وقعد الناس عن العناية بالأجداد وآثارهم ، إلاَّ نفرًا كريماً يرجو أن يمدنا الله بعونه لنكون عند حسن ظنهم فنتجنب الخطل والزلل . ويشهد الله أننا فعلنا هذا خدمة للعربية وأَدبها وبيانها وتراثها الضَّخم لا نبغى من وراء ذلك إلاَّ وجهَ الله والوطن وتاريخنا المجيد ، والله من وراء القصد ، له الحمد والمنة فى البدء والختام .

سامى الدهان

دمشق الشام { فى ٢ من جمادى الثانية ١٣٧٦
و ٤ من كانون الثانى (يناير) ١٩٥٧

١ – نموذج من النسخة الوحيدة المخطوطة المحفوظة في مكتبة « ليدن » في هولندة (الورقتان ٢٩ ظ + ٣٠ و) انظر الصفحتين ٥٩ + ٦٠ من هذه الطبعة

٢ – نموذج آخر من النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة « ليدن » فى هولندة (الورقتان ٣٠ ظ + ٣١ و) انظر الصفحات ٦١ – ٦٣ من هذه الطبعة

رفع
المسهم

بيان الرموز المستعملة والاختصارات

م : تسبق الأرقام لتدل على صفحات المقدمة التى كتبها المحقق .

ص : صفحة .

ط : طبعة .

ج : جزء .

و : وجه الورقة من المخطوط .

ظ : ظهر الورقة من المخطوط .

مخطوطة الأصل : نسخة ليدن لديوان مسلم رقم ٥٩٥ .

طبعة المستشرق : طبعة ده خويه لديوان مسلم بليدن سنة ١٨٧٥م

[ ] : وضعنا بينهما ما رأينا إضافته للسياق . لطمس فى المخطوطة ، أو غموض ، أو لإكمال نقص سواء دلت عليه النسخة أم لم تدل .

| | : للدلالة على نهاية الصفحة وبدء الصفحة التالية فى المخطوطة .

[٣٣] : وضعناهما فى الهامش أو فى صلب الصفحات ، وبينهما الرقم للدلالة على رقم الورقات أو الصفحات .

.... : وضعنا الأصفار فى الأماكن التى وقع فيها طمس أو غموض ولم نستطع حله أو ملأه .

(وأما المختصر من أسماء المؤلفين وآثارهم فنى الفهارس عون لبيانه ومعرفته)

ديـوان
أبي الوَليدِ مُسْلِمِ بنِ الوليدِ الأنصَارِيِّ
الشهير بصَريع الغواني المتوفى سنة ٢٠٨ هـ

رواه وشـرَحه

أبو العبّاس وَليدُ بنُ عيسَى الطبيخيُّ الأندلُسيُّ

المتوفى سنة ٣٥٢ هـ

الجـزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك يارب